لغز الصندوق الإسباني

-١-

دخل هيركيول بوارو الغرفة الصغيرة في وقته المعتاد ليجد سكرتيرته القديرة الآنسة ليمون تنتظر تعليمات اليوم. كانت الآنسة ليمون آلة بشرية، آلة للدقة والضبط ذات كفاءة عالية، وكانت في الثامنة والأربعين من عمرها، ولا تتمتع -لحسن حظها- بأي خيال.

قال بوارو: صباح الخير يا آنسة ليمون.

- صباح الخير يا سيد بوارو.

جلس بوارو، فيما وضعت الآنسة ليمون أمامه بريد الصباح مرتباً ومصنفاً، ثم عادت فجلست مكانها وهي تحمل دفتراً وقلماً استعداداً للتعليمات. ولكن حصل تغيّر في الروتين هذا الصباح، فقد أحضر بوارو معه صحيفة الصباح وكانت عيناه تتصفحانها باهتمام. كانت العناوين كبيرة واضحة: «لغز الصندوق الإسباني، آخر التطورات».

سألها بوارو: هل قرأت صحف الصباح يا آنسة ليمون؟

- نعم يا سيد بوارو، إن أنباء جنيف غير مشجعة.

استبعد بوارو أنباء جنيف بحركة من ذراعه وقال بتأمل: صندوق إسباني، هل تستطيعين أن تخبريني ما هو بالضبط الصندوق الإسباني يا آنسة ليمون؟

- أظن أنه صندوق جيء به من إسبانيا يا سيد بوارو.

- هذا معقول، ولكن أليس لديك معرفة تفصيلية به؟

- أظن أن هذه الصناديق تعود إلى العصر الإليزابيثي، وهي ضخمة ومزيَّنة بالنقوش النحاسية، لكنها صناديق جميلة إذا ما تمت العناية بها وتلميعها. لقد اشترت أختي واحداً من تلك الصناديق في مناسبة تنزيلات وهي تضع فيه أغطية المنزل، إنه جميل الشكل.

انحنى بوارو بلباقة قائلاً: أنا واثق من أن منزل أيّ من أخواتك سيكون أثاثه محفوظاً بعناية تامة.

أجابته الآنسة ليمون حزينة بأن الخدم لا يعرفون شحم المرفق في هذه الأيام. وبدا بوارو متحيراً، ولكنه قرر أن لا يسألها عن المعنى الضمني لهذا التعبير الغامض: «شحم المرفق». لقد كان ذلك تعبيراً إنكليزياً عامياً يُقصَد به «العمل الشاق»، لكن بوارو البلجيكي ما كان ليفطن إلى هذا المعنى بالتأكيد.

عاد بوارو إلى الصحيفة متأملاً الأسماء: الرائد ريتش، السيد والسيدة كلايتون، القائد مكلارين، السيد والسيدة سبينس... كانت بالنسبة إليه مجرد أسماء، ومع ذلك فقد كان لهؤلاء شخصياتهم الإنسانية، كرههم وحبهم ومخاوفهم. كانت تلك دراما لا يشارك فيها هيركيول بوارو، لكنه كان توّاقاً إلى لعب دور فيها! في حفل ساهر، في غرفة يجثم قرب أحد جدرانها صندوق إسباني ضخم،

ستة أشخاص؛ خمسة منهم يتحدثون ويتناولون عشاءهم ويستمعون إلى الأسطوانات، والسادس ميت في الصندوق الإسباني!

فكّر بوارو: كم كان صديقي العزيز هيستنغز سيستمتع بمثل هذه القصة! كم كان سيحلّق بخياله الرومَنسي فيها وكم من سخافة كان سيرددها! آه، هيستنغز العزيز! في هذه اللحظة، اليوم، أنا أفتقده، بدلاً منه...

تنهد ونظر إلى الآنسة ليمون التي أدركت بذكائها أن بوارو ليس في مزاج يسمح له بإملاء الرسائل، فرفعت الغطاء عن الآلة الطابعة بانتظار البدء بإنجاز ما لم يُنجَز من الأعمال. لقد كانت الصناديق الإسبانية المشؤومة التي تحوي جثث الموتى آخر ما يمكن أن يجذب اهتمامها.

تنهد بوارو ونظر إلى الوجه المصوَّر في الصحيفة. لم تكن عملية إعادة طبع الصورة على ورق الصحيفة موفَّقة، فقد بدت الصورة ضبابية. ولكن يا له من وجه! السيدة كلايتون، زوجة القتيل.

ألقى بالجريدة فجأة إلى الآنسة ليمون متسائلاً: انظري إلى هذا الوجه.

نظرت الآنسة ليمون إلى الوجه دون إبداء أية مشاعر.

- ما رأيك فيها يا آنسة ليمون؟ إنها السيدة كلايتون.

أخذت الآنسة ليمون الصحيفة ونظرت إلى الصورة دون اهتمام ثم قالت: إنها تشبه قليلاً زوجة مدير المصرف في منطقة كرويدون هيث حيث كنا نسكن.

- هذا أمر مثير. هل لك أن تتلطفي وتسردي لي قصة زوجة مدير مصرفكم.

- حسناً، إنها ليست قصة سارة يا سيد بوارو.

- لقد خطر لي أنها غير سارة فعلاً. استمري.

- كان يدور كثير من اللغط حول السيدة آدامز وفتان شاب، مما دفع السيد آدامز إلى إطلاق النار على نفسه. ومع ذلك فإن السيدة آدامز لم تقبل الزواج بالشاب مما جعله يتناول سماً ما، ولكن تم إنقاذه من الموت، وأخيراً تزوجت السيدة آدامز محامياً شاباً. وأظن أن مزيداً من المشكلات قد وقع بعد ذلك، ولكننا كنا قد تركنا كرويدون هيث وقتها فلم أعد أسمع الكثير عن المرأة.

هزّ بوارو رأسه باهتمام قائلاً: هل كانت جميلة؟

- حسناً، لم تكن من النوع الذي يمكن وصفه بالجمال، ولكن يبدو أنها كانت ذات تأثير خاص.

- ما هو بالضبط ذلك الشيء الذي تمتلكه ساحرات هذا العالم، مثل هيلين طروادة وكليوباترا؟

أدخلت الآنسة ليمون ورقة في آلة الطباعة بشيء من الحدة قائلةً: الحقيقة أنني لم أفكر في هذا الأمر يا سيد بوارو، فالمسألة تبدو سخيفة في نظري. ولو أن الناس انصرفوا إلى أعمالهم وتركوا التفكير بمثل هذه الأمور لكان خيراً لهم.

وهكذا رمت الآنسة ليمون عن كاهلها الضعف والعاطفة الإنسانيين، وتركت أصابعها تحوم حول مفاتيح آلة الطباعة متشوّقة إلى اللحظة التي تبدأ فيها عملها.

قال بوارو: هذا رأيك إذن؟ وأنت الآن ترغبين أن أتركك تقومين بعملك. لكن عملك -يا آنسة ليمون- لا يقتصر على تسجيل ما أمليه عليك وترتيب أوراقي والردّ على مكالماتي الهاتفية وطباعة رسائلي... إنك تؤدّين ذلك كله بشكل رائع، لكن أنا لا أتعامل مع الوثائق فحسب، بل مع البشر. وأنا أحتاج إلى مساعدتك في هذا الحقل أيضاً.

قالت الآنسة ليمون بصبر: حاضر يا سيد بوارو، ما الذي تريدني أن أفعله؟

هذه القضية تثير اهتمامي، وسأكون سعيداً لو أعددت لي دراسة عن تقارير صحف الصباح بشأن الموضوع، وأية تقارير إضافية في صحف المساء... أعدّي لي ملخصاً عن الحقائق.

حسناً يا سيد بوارو.

انسحب بوارو إلى غرفة جلوسه وعلى وجهه ابتسامة كئيبة، ثم أخذ يحدث نفسه: إنه لمن السخرية فعلاً أن تعمل عندي الآنسة ليمون بعد صديقي العزيز هيستنغز. أي تناقض بين الاثنين! كم كان عزيزي هيستنغز سيجد من المتعة في مثل هذه القضية. لقد كان حرياً أن يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يتحدث عنها واضعاً حول كل حدث من أحداثها أكثر الافتراضات رومَنسية، مصدّقاً كل ما تكتبه الصحف عنها كحقائق منزّلة! أما هذه المسكينة ليمون، فحتى القليل الذي طلبته منها لم تجده ممتعاً أبداً.

جاءته الآنسة ليمون بعد بعض الوقت بورقة مطبوعة قائلة: هذه هي المعلومات التي طلبتها يا سيد بوارو، ولو أنني أخشى أن لا تكون موثوقة لأن الصحف تختلف كثيراً في تغطيتها للحدث، ولعلّي لا أضمن أن تكون المعلومات الواردة دقيقة بأكثر من ستين بالمئة.

تمتم بوارو قائلاً: ربما كانت تقديراتك محافظة، ولكن شكراً على ما تجشمت من عناء.

كانت الحقائق مثيرة ولكنها واضحة بما فيه الكفاية، فقد دعا الرائد تشارلز ريتش (الأعزب ميسور الحال) بعض أصدقائه إلى حفلة ساهرة في شقته، وكان هؤلاء الأصدقاء هم: السيد والسيدة كلايتون، والسيد والسيدة سبينس، والقائد مكلارين. وكان القائد مكلارين صديقاً قديماً لريتش ولعائلة كلايتون أيضاً، بينما كان السيد والسيدة سبينس الشابان مجرد صديقين حديثين. أما أعمالهم: فقد كان آرنولد كلايتون يعمل في وزارة المالية، بينما يعمل جيريمي سبينس موظفاً عادياً، وكان الرائد ريتش في الثامنة والأربعين، وآرنولد كلايتون في الخامسة والخمسين، والقائد مكلارين في السادسة والأربعين، وجيريمي سبينس في السابعة والثلاثين. وقد قيل عن السيدة كلايتون إنها أصغر من زوجها ببضع سنوات. شخص واحد من هؤلاء لم يستطيع حضور الحفلة، ففي اللحظة الأخيرة تم استدعاء السيد كلايتون إلى إسكتلندا في عمل طارئ، وكان يفترض أن يغادر محطة كينغز كروس في قطار الساعة الثامنة والربع.

مضت الحفلة كما تمضي مثيلاتها، حيث بدا الجميع سعداء يتمتعون بوقتهم، ولم يكن ثمة صخب ولا شراب. انتهت الحفلة في الساعة الثانية عشرة إلاّ ربعاً تقريباً، حيث غادر الضيوف الأربعة معاً واشتركوا في سيارة أجرة في طريق عودتهم. نزل القائد مكلارين أولاً عند النادي، ثم نزلت السيدة مارغريتا كلايتون عند شارع كارديغان غاردنز المتفرع من شارع سلون، وواصل السيد والسيدة سبينس طريقهما إلى بيتهما في تشيلسي.

الاكتشاف الرهيب تم في صبيحة اليوم التالي على يد خادم الرائد ريتش، المدعو وليام بيرجس، الذي لم يكن خادماً مقيماً. فقد وصل بيرجس مبكراً لتنظيف غرف الجلوس قبل أن يُحضر للرائد ريتش شاي الصباح، وفي أثناء التنظيف فوجئ ببقعة كبيرة لوّثت السجادة فاتحة اللون حيث يقع الصندوق الإسباني. وبدا أن هذه البقعة قد تسربت من الصندوق، فرفع الخادم غطاءه ونظر فيه ليُروَّع بالعثور على جثة السيد كلايتون مطعونة في العنق. واستجاب بيرجس لأول فكرة خطرت له فهرع إلى الشارع وأحضر أول شرطي رآه.

كان تلك هي الحقائق البسيطة للقضية، غير أنه كانت هناك تفصيلات أخرى. فقد أبلغ الشرطة النبأ فوراً للسيدة كلايتون التي انهارت تماماً. كانت قد رأت زوجها للمرة الأخيرة بعد الساعة السادسة بقليل في مساء اليوم السابق، حيث جاء منزعجاً لاستدعائه إلى إسكتلندا في عمل طارئ يخص بعض ممتلكاته هناك. وقد حثّ زوجته على حضور الحفلة بدونه، ثم ذهب إلى النادي الذي يضمه والقائد مكلارين حيث شرب الشاي مع صديقه وشرح له الأمر، ثم قال وهو ينظر إلى ساعته إنه لا يملك من الوقت قبل التوجه إلى محطة كينغز كروس إلا ما يسمح له بالمرور على الرائد ريتش لشرح موقفه، وقال إنه حاول أن يتصل به ولكن الهاتف كان متوقفاً عن العمل كما يبدو.

وطبقاً لما قاله وليام بيرجس فإن السيد كلايتون وصل إلى شقة مخدومه في نحو الثامنة إلاّ خمس دقائق، ولم يكن الرائد ريتش موجوداً وقتها لكنه كان على وشك العودة، مما جعل بيرجس يقترح على السيد كلايتون الدخول لانتظاره. وقد قال كلايتون إن وقته ضيق ولكنه سيدخل لكتابة ملاحظة، موضّحاً أنه في طريقه لركوب قطار من محطة كينغز كروس. أدخله الخادم إلى غرفة الجلوس وعاد هو إلى

المطبخ حيث كان مشغولاً بتحضير رقائق الخبز المحمص للحفلة.

ولم يسمع الخادم صوت عودة سيده الرائد ريتش، ولكن ريتش أطلّ على المطبخ بعد نحو عشر دقائق وطلب من بيرجس أن يسرع في الخروج لشراء بعض السجائر التركية التي يفضل السيد سبينس تدخينها. ونفذ الخادم ذلك، وقد اعتقد طبعاً أن كلايتون غادر ليلحق بقطاره.

أما رواية الرائد ريتش للأحداث فقد كانت قصيرة وبسيطة. فالسيد كلايتون لم يكن في الشقة عندما عاد هو إليها، بل هو لم يعرف أن كلايتون حضر إلى الشقة. كما قال إنه لم يترك له أية ملاحظة، وأنه لم يسمع برحلة كلايتون إلى إسكتلندا إلاّ عندما وصلت السيدة كلايتون والآخرون.

كان في صحف المساء معلومتان إضافيتان، فالسيدة كلايتون التي انهارت من هول الصدمة تركت شقتها في كارديغان غاردنز، ويُظَن أنها ذهبت لتقيم مع أصدقاء لها. أما المعلومة الثانية فقد وردت في زاوية آخر الأخبار، ومفادها أن الرائد تشارلز ريتش قد اتُّهم بقتل آرنولد كلايتون وتم اعتقاله.

قال بوارو وقد رفع عينيه إلى الآنسة ليمون: هكذا إذن؟ لقد كان اعتقال الرائد ريتش متوقَّعاً. ولكن يا لها من قضية رائعة، رائعة جداً! ماذا ترين يا آنسة ليمون؟

قالت الآنسة ليمون بغير اهتمام: تحدث أمور كثيرة كهذه يا سيد بوارو.

- بالتأكيد، تحدث يومياً أو تكاد، ولكنها تكون مفهومة تماماً في العادة... رغم ما تثيره من أسى.

إنها مسألة بغيضة بالتأكيد!

إنها بغيضة، بل بغيضة جداً بالنسبة للضحية؛ أن يُطعَن حتى الموت ويُحشَر في صندوق إسباني. ولكنني عندما قلت إنها قضية رائعة أردت أن أشير إلى التصرف المثير للرائد ريتش.

قالت الآنسة ليمون بشيء من النفور: لقد ورد تلميح إلى أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون كانا صديقين حميمين... ولكنه كان تلميحاً فقط لا حقيقة ثابتة، ولذلك فإنني لم أضمّنه في التقرير.

قال بوارو: كان هذا تصرفاً صحيحاً منك، ولو أنه استنتاج سرعان ما يقفز إلى الذهن. أهذا كل ما لديك؟

وقفت الآنسة ليمون خالية الذهن، فتنهد بوارو وقد افتقد الخيال الخصب الزاهي الذي كان صديقه هيستنغز يتمتع به. لقد كان بحث القضية مع الآنسة ليمون عملاً عسيراً.

قال بوارو: لنتمعن قليلاً في الرائد ريتش هذا. إنه يحب السيدة كلايتون... حسناً، لنفترض ذلك. وهو يريد أن يتخلص من زوجها... سنفترض ذلك أيضاً. ولكن إذا كانت السيدة كلايتون تبادله العواطف وهما متحابّان كلاهما فلِمَ العجلة؟ ربما كان السيد كلايتون يرفض طلاق زوجته؟ ليس هذا ما أثار اهتمامي بل الرائد ريتش نفسه؛ إنه جندي متقاعد، ويُقال أحياناً إن الجنود ليسوا أذكياء، ولكن حتى إن لم يكن بالغ الذكاء فهل يمكن للرائد ريتش هذا أن يكون معتوهاً تماماً؟

لم تجب الآنسة ليمون عن هذا السؤال، وكأنها اعتبرته مجرد سؤال بلاغي للتعجب، فسألها بوارو: حسناً، ما رأيك أنت في القضية كلها؟

جفلت الآنسة ليمون من السؤال وقالت: رأيي أنا؟!

- نعم؛ أنت.

كيّفت الآنسة ليمون عقلها لمواجهة العبء الذي أُلقي عليه، فهي لم تكن ميّالة إلى أيّ نوع من أنواع التأمل العقلي إلا إذا طُلب منها ذلك. كان عقلها مزدحماً في أوقات فراغها بتفصيلات ابتداع نظام كامل وممتاز لحفظ الملفات؛ فقد كان هذا هو المجال الوحيد لإبداعها وتفوقها العقلي.

بعد ذلك بدأت تحليلها للأمر، قالت: حسناً...

ثم توقفت، فقال بوارو: أخبريني فقط بما تتصورين أنه قد حصل في تلك الأمسية. السيد كلايتون في غرفة الجلوس يكتب ملاحظة، ويعود الرائد ريتش... ماذا حدث بعد ذلك؟

- وجد السيد كلايتون هناك، ثم... لعلهما قد تشاجرا فطعنه الرائد ريتش، ثم أدرك حقيقة ما فعله فوضع الجثة في الصندوق، إذ كان الضيوف على وشك الوصول على ما أظن.

- نعم، نعم؛ وصل الضيوف، الجثة في الصندوق، انتهت الحفلة وغادر الضيوف... وبعدها؟

- حسناً، بعدها: أظن أن الرائد ريتش أوى إلى فراشه... آه!

- آه، هل فهمتِ الآن؟ تقتلين رجلاً وتخفين جثته في صندوق، ثم تذهبين بعد ذلك إلى فراشك باطمئنان دون أي قلق من أنّ خادمك سوف يكتشف الجريمة في الصباح؟

- ربما كان من غير المحتمل أن ينظر الخادم في الصندوق.

- رغم تلك البركة الكبيرة من الدماء على السجادة تحت الصندوق؟

- وربما لم يدرك الرائد ريتش وجود بقعة الدم هناك.

ألم يكن إهمالاً منه أن لا ينظر ويرى؟

- وربما كان مضطرباً.

رفع بوارو يديه يأساً من هذا الحوار، فاغتنمت الآنسة ليمون الفرصة وأسرعت خارجة من الغرفة.

-٢-

لم يكن لغز الصندوق الإسباني هو قضية بوارو؛ فقد كان مشغولاً حينذاك بمهمة حساسة لإحدى شركات النفط الكبرى يحتمل أن يكون أحد مسؤوليها الكبار متورطاً في بعض الصفقات المشبوهة. كانت قضية سرية وخطيرة ومربحة تماماً، قضية متشابكة جداً بما يتطلب كل ما لدى بوارو من انتباه، وكانت ميزتها العظيمة أنها لا تتطلب جهداً عضلياً أو جسمياً.

أما لغز الصندوق الإسباني فقد كان مثيراً وعاطفياً، وهما ميزتان طالما قال بوارو إنهما قابلتان للمبالغة، وكان غالباً ما يبالغ فيهما بالفعل. وقد كان بوارو قاسياً على صديقه العزيز هيستنغز في هذه النقطة، ولكن ها هو الآن يتصرف كما كان صديقه سيتصرف، مأخوذاً بالنساء الفاتنات وجرائم الحب والغيرة والكراهية، وكل الأسباب الرومنسية الأخرى التي تدفع إلى القتل!

وجد نفسه راغباً في معرفة كل شيء عن هذا اللغز؛ يريد أن يعرف شكل الرائد ريتش، وشكل خادمه بيرجس، وشكل مارغريتا كلايتون... مع أنه اعتقد أن شخصية الضحية كانت ذات الأهمية الكبرى في قضايا

القتل. كما تمنى أن يعرف أشكال القائد مكلارين الصديق المخلص، والسيد والسيدة سبنس اللذين تعرفت المجموعة بهما مؤخراً.

ولم يعرف بوارو كيف سيرضي فضوله! فكّرَ في القضية في وقت متأخر من ذلك اليوم: لماذا أسرته القضية إلى هذا الحد؟ قرر بعد تفكير أن السبب هو أنها -كما رُويت وقائعها- كانت عَصِيّة على الفهم! نعم، كان فيها نكهة لبناء هندسي محكَم.

ولو ابتدأ المرء بالحقائق التي يمكن قَبولها لافترض حدوث مشاجرة بين رجلين ربما كان سببها امرأة، وربما قتل أحدُ هذين الرجلين الآخرَ في ثورة غضب. نعم، يمكن لهذا أن يحدث... لنقل إن العاشق قتل الزوج بطعنه بالخنجر (مع أن العكس هو الذي يحدث عادة)! لكن الخنجر لا يبدو سلاحاً معقولاً في مثل هذه القضية، فهل كان للرائد ريتش أم إيطالية؟ لا بد من وجود سبب يفسر اختيار الخنجر كسلاح... لعله كان في متناول اليد مثلاً؟ وقد استخدمت بعض الصحف كلمة «مدية إيطالية صغيرة» بدلاً من «خنجر».

أما الجثة فقد أخفيت في الصندوق، وهذا معقول، بل إنه محتَّم. فإذا افترضنا أن الجريمة كانت دون سابق تصور وتصميم، وأن الخادم كان على وشك العودة، وأن أربعة ضيوف كانوا أيضاً على وشك الوصول... إذا افترضنا هذا كله لكان وضعُ الجثة في الصندوق هو الخيار الوحيد الذي فرضته الظروف.

حسناً، انتهت الحفلة وانفضّ المدعوون، وغادر الخادم أيضاً... كيف يأوي الرائد ريتش إلى سريره؟ لا بد من رؤية الرائد ريتش واكتشاف حقيقة الرجل الذي يتصرف بهذه الطريقة إذا ما أراد المرء أن يفهم كيفية حدوث ذلك.

هل يمكن مثلاً أن يكون الرائد ريتش (وقد غلبه الرعب مما فعله وسيطر عليه التوتر طوال الأمسية وهو يحاول أن يُظهر نفسه على طبيعته) قد تناول نوعاً من الحبوب المنوّمة أو المهدئة مما أدخله في سبات عميق جعله ينام أطول من عادته بكثير؟ هذا ممكن. أم كانت تلك مسألة نفسية، حيث يكون الشعور اللاواعي بالذنب لدى الرائد ريتش قد جعله يريد للجريمة أن تُكتَشف؟ حتى يقرر المرء ذلك لا بد له من رؤية الرائد ريتش. كلما أمعن المرء في التحليل عاد ثانية إلى...

رنّ جرس الهاتف، وتركه بوارو يرنّ بضع دقائق حتى أدرك أن الآنسة ليمون قد غادرت منذ مدة بعد أن أعطته الرسائل ليوقعها وأن جورج ربما كان في الخارج.

رفع السماعة فسمع الطرف الآخر يسأل: السيد بوارو؟

- يتكلم.

- يا للروعة! أنا آبي تشاترتون.

لمعَت عينا بوارو لحماسة الصوت الأنثوي الساحر وقال: آه، ليدي تشاترتون. كيف لي أن أخدمك يا سيدتي؟

- بحضورك فوراً وبسرعة إلى الحفلة الفظيعة التي أقيمها هنا في بيتي. ليس من أجل الحفلة تحديداً، بل لأمر مختلف تماماً في الواقع. إنني في أمسّ الحاجة إليك لأمر فائق الأهمية. وأرجوك، أرجوك، أرجوك أن لا تخيب أملي وأن لا تعتذر عن القدوم.

لم يكن في نية بوارو أن يقدم أي اعتذار. كان اللورد تشاترتون واحداً من أمراء المملكة المتحدة، وكان يلقي أحياناً خطباً مملة جداً في مجلس اللوردات، ولكنه لم يكن -باستثناء ذلك- سوى نكرة.

أما الليدي تشاترتون فقد كانت أفعالها وكلماتها تحتل صفحات الصحف، وكانت ذات عقل وجمال وأصالة، وكان فيها من الحيوية ما يكفي لإطلاق صاروخ إلى القمر.

كررت القول: أنا بحاجة إليك، فاقتل شاربك الرائع وتعال!

* * *

عندما وصل بوارو إلى بيت الليدي تشاترتون الرائع في شارع تشيريتون كان بابه مفتوحاً جزئياً، وكانت الضجة المنطلقة منه تشبه ضجة حيوانات تقوم باعتصام في حديقة الحيوان.

كانت الليدي تشاترتون تستضيف سفيرين ورياضياً دولياً ودبلوماسياً أمريكياً، وما إن رأت بوارو حتى تملصت منهم بخفة الساحر وبراعته وأسرعت إليه قائلة: السيد بوارو، كم أنا سعيدة برؤيتك!

قادته على الدرج وهو يتبعها، ثم توقفت لتلتفت إليه قائلة: لم أتملص من أولئك الناس بهذه الطريقة إلا لأن من الضروري جداً أن لا يعرف أحد منهم أن أمراً معيناً يجري هنا، وقد وعدت الخدم بمكافآت ضخمة إذا لم يسرّبوا النبأ؛ فما من أحد يرغب في رؤية بيته محاصَراً بالصحفيين، وهذه المسكينة الغالية يكفيها ما مرّ بها حتى الآن.

لم تتوقف الليدي تشاترتون في الطابق الأول، بل واصلت صعودها إلى الطابق الثاني، وتبعها بوارو بشيء من الذهول وهو يلهث. وأخيراً توقفت وألقت نظرة سريعة على الطابق السفلي، ثم فتحت باباً وهي تهتف: لقد حصلنا عليه يا مارغريتا؛ لقد أحضرته... ها هو!

ثم وقفت جانباً وعلى وجهها علامات الانتصار لتدع بوارو

يدخل قبل أن تقوم بتعريف سريع: أقدم لك مارغريتا كلايتون. إنها صديقتي العزيزة جداً جداً، وأنت ستساعدها، أليس كذلك؟ ... مارغريتا، أقدم لك هيركيول بوارو الرائع. إنه سيقوم بكل ما تريدينه منه، أليس كذلك يا عزيزي بوارو؟

ثم تابعت بسرعة: "ينبغي أن أعود إلى ضيوفي"، وخرجت دون أن تنتظر جواباً من بوارو على سؤالها معتبِرةً موافقته أمراً مفروغاً منه.

نهضت المرأة التي كانت تجلس على كرسي قرب النافذة وتقدمت منه. وقد كان بوسعه أن يميزها حتى لو لم تذكر الليدي تشاترتون اسمها؛ فها هو ذلك الحاجب العريض، العريض جداً، والشعر الأسود ينفر منه كالأجنحة، وها هما العينان الرماديتان المتباعدتان. كانت ترتدي ثوباً عالي الياقة أسود اللون، وكان وجهها غريباً أكثر منه جميلاً، كان في سيماها نوع من بساطة العصور الوسطى، من البراءة الغريبة التي يمكن أن تكون (كما خطر لبوارو) أكثر قدرة على التدمير من أي شكل متكلِّف مصنوع. وكان في صوتها عندما تكلمت إخلاص طفولي: لقد قالت آبي إنك ستساعدني...

ثم نظرت إليه باهتمام واستفهام. أما هو فقد وقف صامتاً لفترة يمعن النظر إلى المرأة، ولكن دون أن يكون في طريقته أي معنى لسوء التهذيب، فقد كانت نظرته نظرة أخصائي شهير إلى مريض جديد. ثم قال أخيراً: هل أنتِ واثقة من أنني أستطيع مساعدتك يا سيدتي؟

تورّد خداها قليلاً وقالت: لا أعرف ما الذي تعنيه.

- ما الذي تريدين مني أن أفعله يا سيدتي؟

بدت مدهوشة وهي تجيب: آه، ظننت أنك تعرفني.

- نعم، أعرفك؛ لقد قُتِل زوجك طعناً واعْتُقِل الرائد ريتش متهماً بقتله.

اشتد تورد الخدين، وقالت: الرائد ريتش لم يقتل زوجي.

قال بوارو بسرعة البرق: ولِمَ لا؟

حدقت إليه مذهولة وقالت: عفواً... لم أفهمك.

- لقد أربكتُكِ لأنني لم أسأل السؤال التقليدي الذي يطرحه الجميع، وهو: لماذا يقتل الرائدُ ريتش آرنولد كلايتون؟ ولكني طرحت السؤال المعاكس. وأنا أسألك يا سيدتي: لماذا أنت واثقة من أن الرائد ريتش لم يقتله؟

- لأنني..

وتوقفت للحظة، فقال: لأنك تعرفين الرائد ريتش حق المعرفة.

سكت قليلاً ثم قال بحدة: إلى أي مدى؟

لم يستطع أن يتبين فيما إذا كانت قد فهمت معنى سؤاله، فقال في نفسه: إما أن تكون هذه المرأة على جانب كبير من السذاجة أو على جانب كبير من الدهاء، ويبدو أن كثيراً من الناس قد وقعوا في هذه الحيرة تجاه مارغريتا كلايتون.

قالت وهي تنظر إليه بريبة: إلى أي مدى؟ خمس سنوات، بل ست سنوات تقريباً.

- ليس هذا ما قصدته بالضبط. ينبغي عليك أن تفهمي يا سيدتي أنني سأضطر إلى توجيه أسئلة خارج الموضوع. وربما قلتِ الحقيقة

وربما كذبتِ، فأحياناً يكون من الضروري للمرأة أن تكذب؛ على النساء أن يحمين أنفسهن، ويمكن للكذبة عندها أن تكون سلاحاً جيداً. ولكن ينبغي أن تخبريني بالحقيقة إذا كنت تثقين بي، فهل تثقين بي يا سيدتي؟

سحبت مارغريتا كلايتون نفساً عميقاً وقالت: "نعم، أثق بك"، ثم أضافت: ليس لي خيار آخر.

جيد، إذن ما الذي تريدينني أن أفعله؟ أن أعرف قاتل زوجك؟

نعم.

ولكن هذا ليس بالأمر الجوهري! أنت تريدين أن أثبت براءة الرائد ريتش، أليس كذلك؟

أومأت فوراً بالإيجاب قائلة: بلى، هذا... وهذا فقط.

لقد كان واضحاً أنه لا حاجة إلى ذلك السؤال، فقد كانت مارغريتا كلايتون امرأة لا ترى أمامها إلا الأمر الذي تريده في وقت معين.

- والآن نبدأ بالأسئلة المحرجة الخارجة عن الموضوع: هل كنتما أنت والرائد ريتش متحابين؟

أتعني أنه كان بيننا علاقة غرامية؟ لا.

ولكنه كان يحبك؟

نعم.

- وكنت أنت تحبينه؟

- أظن ذلك.

- يبدو أنك غير متأكدة؟

- بل إنني متأكدة... الآن.

- آه! إذن فأنت لم تحبي زوجك؟

- نعم، لم أحبه.

- إنك تجيبين ببساطة تستحق الإعجاب، فمعظم النساء يملن إلى التطويل في شرح حقيقة مشاعرهنّ بتفصيل دقيق. كم مضى على زواجكما؟

- إحدى عشرة سنة.

- هل يمكنك أن تحدثيني قليلاً عن زوجك، من أي نوع من الرجال كان؟

قطبت جبينها ثم قالت: في هذا الأمر بعض الصعوبة؛ فأنا لا أدري بالفعل إلى أي نوع من الرجال كان آرنولد ينتمي. لقد كان هادئاً جداً ومتحفّظاً جداً، فلم يكن بوسع أحد أن يعرف في أي شيء يفكر. كان ذكياً طبعاً وكان... لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك؛ فهو لم يُظهر كوامِنَ نفسه على الإطلاق.

- هل كان يحبك؟

- آه، نعم، لا بد أنه كان يحبني، وإلا لما اهتم كثيراً...

توقفت فجأة، فسألها بوارو: بالرجال الآخرين؟ أهذا ما كنت تريدين قوله؟ هل كان غيوراً؟

قالت: "لا بد أنه كان كذلك". ثم مضت قائلة وكأنها أحسّت بأن عبارتها تحتاج إلى شرح: أحياناً كان يمكث عدة أيام دون أن يتكلم...

أومأ بوارو برأسه متأملاً وقال: هذا العنف... الذي دخل حياتك. هل هو أول حادث عنف تشهدينه؟

"عنف؟!"... عبست، ثم احمرّت وجنتاها وقالت: هل هو... هل تعني... ذلك الفتى المسكين الذي أطلق النار على نفسه؟

نعم، هذا ما قصدته.

لم أعرف أن لديه ذلك الشعور. لقد حزنت من أجله... كان يبدو خجولاً جداً ووحيداً. لا بد أنه كان مضطرباً عصبياً. كما عرفت ذات مرة رجلين إيطاليين وكانت هنالك مبارزة... كان ذلك سخيفاً، ولكن لم يُقتَل أحدٌ والحمد لله... وبصراحة لم أكن أهتمّ بأي منهما، بل إنني لم أتظاهر بالاهتمام بأي منهما أبداً.

نعم، لكنك كنت -ببساطة- موجودة؛ وحيث توجدين تحدث الأشياء! لقد رأيت ذلك من قبل، فالرجال يصيبهم الجنون لأنك لا تهتمين. ولكنك تهتمين الآن بالرائد ريتش، وبالتالي فعلينا أن نعمل ما بوسعنا.

صمت لدقيقة أو دقيقتين، وجلست هناك تراقبه باهتمام.

حسناً، لننتقل من الشخصيات (التي غالباً ما تكون أهمّ ما في الأمر) إلى الحقائق المجردة. أنا لا أعرف من تلك الحقائق إلاّ ما نشرته الصحف، فإذا اعتمدنا على ما نُشر نقول إن شخصين اثنين فقط سنحت لهما فرصة قتل زوجك. أحد شخصين يمكن أن يكون قد قتله: الرائد ريتش أو خادمه.

قالت بعناد: أنا أعرف أن تشارلز لم يقتله.

- إذن فينبغي أن يكون الخادم هو القاتل، هل توافقين؟

قالت في شك: أدرك ما تعنيه.

- ولكنك مرتابة تجاهه؟

- إنه يبدو مجرد احتمال خيالي!

- ومع ذلك فإن الإمكانية قائمة، فممّا لا يتطرق الشك إليه أن زوجك قد جاء إلى الشقة لأن جثته وُجِدت هناك. فإذا كانت قصة الخادم صحيحة فإن الرائد ريتش هو الذي قتل زوجك، ولكن ماذا لو كانت قصة الخادم مزيفة؟ إذن يكون الخادم هو الذي قتله وأخفى الجثة في الصندوق قبل عودة سيده، وتكون تلك -من وجهة نظره- طريقة ممتازة للتخلص من الجثة، حيث لا يتبقى عليه إلاّ أن يلاحظ بقعة الدم صباح اليوم التالي ويكتشف الجثة، وسوف تحوم الشبهات فوراً حول ريتش.

- ولكن لماذا يقتل هذا الخادمُ زوجي؟

- آه، لماذا؟ لا يمكن أن يكون الدافع واضحاً، وإلا لكان الشرطة قد حققوا فيه. ربما علم زوجك شيئاً يضرّ بالخادم وأمانته وكان على وشك إخبار الرائد ريتش بالحقيقة. هل سبق لزوجك أن أخبرك بأي شيء عن هذا الرجل بيرجس؟

هزت رأسها بالنفي.

- هل تعتقدين أن زوجك كان سيخبرك لو أنه عرف شيئاً عن الخادم؟

قطبت حاجبيها وقالت: من الصعب أن أعرف. ربما لم يكن ليخبرني؛ فهو لا يتكلم كثيراً عن الناس، وقد أخبرتك أنه كان متحفظاً. إنه لم يكن ثرثاراً أبداً.

- كان رجلاً كَتوماً... نعم، والآن ما رأيك أنت في بيرجس؟

- إنه ليس من الرجال الذين ينتبه إليهم المرء كثيراً. كان خادماً جيداً، كان ملائماً ولكنه غير مصقول.

- وما هو عمره؟

- إنه في نحو السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين، وأظن أنه كان مراسلاً في الجيش خلال الحرب، غير أنه لم يكن جندياً نظامياً.

- متى بدأ عمله عند الرائد ريتش؟

- منذ مدة قصيرة، نحو سنة كما أظن.

- ألم تلاحظي أي أمر غريب في تعامله مع زوجك؟

- لم أذهب كثيراً هناك. أظن أنني لم ألاحظ شيئاً غريباً أبداً.

- أخبريني الآن عمّا حدث في تلك الأمسية: ما هو الوقت الذي كان مقرراً فيه وصولكم؟

- من الثامنة والربع حتى الثامنة والنصف.

- وأي نوع من الحفلات كان مقرراً لها أن تكون؟

- حسناً، كان عشاء فاخراً يضمّ -على الأغلب- أطباقاً شهية مثل الكبد بالدهن وسمك السلمون المدخَّن، وأحياناً يقدَّم فيه طبق

من الرز الحار، يقدمه تشارلز بطريقة تعلمها في الشرق الأدنى، ولكن هذا كان غالباً في الشتاء. ثم نستمع عادة إلى الموسيقى، فلدى تشارلز جهاز أسطوانات ممتاز، وزوجي والسيد جوك مكلارين مغرمان بالموسيقى الكلاسيكية. هذا ما كان يحدث عادة... سهرة بلا رسميات، وقد كان تشارلز مُضيفاً ممتازاً دائماً.

- وفي تلك السهرة ذاتها: هل جرت الأمور كباقي الأمسيات؟ ألم تلاحظي أي شيء غير طبيعي أو في غير مكانه؟

قطبت جبينها للحظة ثم قالت: في غير مكانه؟ عندما قلتَ ذلك... حسناً، لا أدري. لم يكن هناك شيء.

ثم هزّت رأسها ثانية وقالت: "لا؛ الجواب على سؤالك أنه لم يكن أيُّ شيء مخالفاً لطبيعته في تلك الحفلة. لقد تمتعنا بالحفلة وكان الجميع سعداء ومرتاحين". ثم ارتعشت وقالت: ومن غير الممكن أن يفكر المرء بأن الحفلة بطولها...

رفع بوارو يده بسرعة مقاطعاً: لا تفكري، بل أخبريني: ما هي معلوماتك عن ذلك العمل الذي استُدعي زوجك بسببه إلى إسكتلندا؟

- لا أملك معلومات وافية. أظن أن نزاعاً قد وقع بشأن قيود بيع قطعة أرض كان زوجي يملكها، وقد تيسرت عملية البيع كما يبدو، ثم ظهرت عقبة ما في العملية.

- ما الذي أخبرك به زوجك بالضبط؟

- جاء وفي يده برقية كما أذكر، وقال: "يا له من أمر مزعج! أنا مضطر إلى السفر بقطار المساء إلى إدنبره لرؤية جونستون صباح غد. لقد اعتقدنا أن المعاملة تيسرت أخيراً. هذا أمر مزعج". ثم قال: "هل

أخابر جوك وأطلب منه المرور لاصطحابك إلى الحفلة؟" فقلت: "لا حاجة لذلك، سأستقلّ سيارة أجرة"، فقال إن جوك سيوصلني أو إن الزوجين سبينس سوف يوصلاني إلى البيت بعد الحفلة. ثم سألته إن كان بحاجة إلى أن أحزم له متاعه، فقال إنه وضع بعض الحاجيات في حقيبة وتناول طعاماً خفيفاً في النادي قبل التوجه إلى القطار. ثم ذهب، وكانت تلك آخرَ مرة أراه فيها.

تحشرج صوتها قليلاً وهي تقول كلماتها الأخيرة. نظر بوارو إليها بإمعان وسألها: هل أراك زوجك البرقية؟

- لا.

- مع الأسف!

- لماذا تقول ذلك؟

لم يُجِبْ عن سؤالها، بل قال بسرعة: والآن، إلى العمل. مَن هم محامو الرائد ريتش؟

أخبرته بأسمائهم وعناوينهم فدوّن ذلك في مفكرته، ثم قال: هل لك أن تكتبي لهم بضع كلمات حول تكليفي بالتحري عن القضية؟ ينبغي أن أقوم ببعض الترتيبات لأقابل الرائد ريتش.

- لقد جُدِّد احتجازه احتياطياً لمدة أسبوع.

- هذا طبيعي، وهو الإجراء المتبَع. هل لك أن تكتبي أيضاً إلى القائد مكلارين وأصدقائك الآخرين من عائلة سبينس؟ عليّ أن أراهم جميعاً، ومن الضروري أن لا يضطربوا بمجرد رؤيتي.

وعندما كتبت ما طلبه منها ونهضت عن المكتب قال: بقي

أمر آخر. سأسجل أنا انطباعاتي الخاصة عن القائد مكلارين والسيد والسيدة سبينس، ولكنني أريد انطباعاتك أنت أيضاً عنهم.

- جوك مكلارين واحدٌ من أصدقائنا القدامى، وقد عرفته منذ كنت طفلة. وهو يبدو عنيداً وقاسياً للوهلة الأولى، ولكنه -في الحقيقة- صديق عزيز لم يتغير، ويمكن الاعتماد عليه دائماً. ورغم أنه غير مرح ولا مُسلٍّ إلاّ أنه طود شامخ، وقد كنا أنا وآرنولد نعتمد على تقديراته كثيراً.

سأل بوارو وهو يطرف بعينيه: وهو أيضاً كان يحبك بلا ريب؟

أجابت بسعادة: آه، نعم؛ لقد أحبني دوماً، ولكن ذلك أصبح الآن بحكم العادة.

- وماذا عن الزوجين سبينس؟

- إن رفقتهما ممتعة ومسلية. ليندا سبينس فتاة ذكية حقاً، وقد كان زوجي يستمتع بالحديث معهما، فهي جذابة أيضاً.

- أأنتما صديقتان؟

- أنا وليندا؟ بطريقة ما، فأنا لا أدري إن كنت حقاً أحبها. إنها حقودة جداً.

- وزوجها؟

- آه، جيريمي إنسان مرح مغرم بالموسيقى وله معرفة واسعة بالأفلام السينمائية، وقد كنا نذهب معاً إلى السينما كثيراً.

نهض بوارو قائلاً: حسناً، سأرى بنفسي، وأرجو أن لا تندمي على استعانتك بجهودي يا سيدتي.

اتسعت عيناها وهي تقول: ولماذا أندم؟

قال بوارو بخفة ودلال: من يدري؟

ثم حدّث نفسه قائلاً وهو ينزل الدرج: وأنا، أنا أيضاً لا أدري.

* * *

كانت الحفلة في الطابق السفلي مستمرة، ولكنه تجنّب أنظار الحضور وخرج إلى الشارع. كرّرَ مع نفسه: لا أدري.

كانت مارغريتا كلايتون هي التي تشغل تفكيره. هل كان ذلك الصدق الطفولي وتلك البراءة الصريحة اللذان ظهرا عليها، هل كانا بهذه البراءة حقاً أم أنهما يخفيان شيئاً آخر؟ لقد عاشت في العصور الماضية نساء مشابهات، نساء لم تتمكن روايات التاريخ من الاتفاق بشأنهن. وخطرت بباله الملكة الإسكتلندية ماري ستيوارت. هل كانت تلك الملكة على علم في تلك الليلة في قصر كيرك أوفيلدا بالفَعلة التي كانت على وشك الحدوث أم كانت بريئة تماماً؟ ألم يخبرها المتآمرون بشيء؟ هل كانت من أولئك النسوة ذوات البساطة الطفولية اللاتي يستطعن أن يقنعن أنفسهن بأنهن لا يدرين شيئاً؟ شعر بتأثير مارغريتا كلايتون السحري، ولكنه لم يكن متأكداً تماماً من حقيقة هذه المرأة!

إن أمثال هؤلاء النساء (رغم براءتهنّ شخصياً) يمكن أن يكنّ سبباً في الجريمة. إن نساء من هذا النوع يمكن أن يكنّ أنفسهن مجرمات بالنوايا والأهداف، إن لم يكن بالتنفيذ المباشر. إن أيديهن ليست أبداً بالأيدي التي تمسك بالسكين.

أما بالنسبة لمارغريتا كلايتون... لا، لم يكن يدري!

-٣-

لم يجد هيركيول بوارو محامي الرائد ريتش متعاونين كثيراً، لكنه لم يكن يتوقع تعاونهم أصلاً. أشاروا، دون أن يقولوا بصراحة، إلى أن من مصلحة موكِّلهم أن لا تُظهِر السيدة كلايتون أي مؤشر للاهتمام أو التحرك لصالحه.

كانت زيارته لهم من قبيل «دخول البيوت من أبوابها»؛ إذ أن له من النفوذ في وزارة الداخلية وقسم المباحث الجنائية ما يمكّنه من ترتيب مقابلة مع الرائد السجين.

لم يكن المفتش ميلر (المسؤول عن قضية كلايتون) من المفتشين الذين يفضلهم بوارو، ولكنه لم يكن -مع ذلك- عدائياً إزاء اشتراك بوارو في التحقيق، بل اتّسمَ موقفه بالازدراء فقط. وقد قال لمساعده الرقيب قبل دخول بوارو: لا يسعني إضاعة الوقت مع هذا العجوز المتطفل، ومع ذلك عليّ أن أكون مهذباً معه.

وعندما دخل بوارو قال ميلر بمرح: عليك -يا سيد بوارو- أن تُخرج الأرانب من القبعة إذا أردت أن تثبت براءة هذا المتهَم؛ فلا أحد غير ريتش كان بإمكانه قتل الرجل.

- باستثناء الخادم؟

- آه، سأقرّ لك بهذا الاحتمال، ولكنك لن تجد شيئاً في هذا الاتجاه. ليست هناك أية دوافع.

- لا يمكنك الجزم بذلك، فالدوافع تكون غريبة جداً أحياناً.

- صحيح، ولكنه لم يكن على صلة بكلايتون بأي شكل،

وتاريخه نظيف تماماً، ويبدو متوازناً عقلياً. ولا أدري ماذا تريد بعد كل ذلك.

- أريد أن أثبت أن ريتش لم يرتكب الجريمة.

كشّر المفتش ميلر تكشيرة كريهة وقال: حتى تُرضي السيدة، أليس كذلك؟ «فتش عن المرأة»! ولا سيما إذا تملّكها حب الانتقام. لو سنحت لها الفرصة لاقترفت ذلك بنفسها.

- لا، ليس إلى هذا الحد!

- ستفاجأ إذا أخبرتك أنني عرفت امرأة مثلها ذات مرة، وقد أزاحت زوجين من طريقها دون أن تطرف عيناها الزرقاوان البريئتان، وكان يتكسر قلبها في كل مرة أيضاً. كانت هيئة المحلفين ستبرّئها لو كانت هناك نصف فرصة لذلك، الأمر الذي لم يكن وارداً إذ كانت الأدلة قاطعة.

- حسناً يا صديقي، لنترك الجدل جانباً. إن ما سأتجرأ وأطلبه منك هو بعض التفصيلات الموثوقة حول حقيقة ما حدث؛ إذ أن ما تطبعه الصحف هو أخبار وليس حقائق!

- لا بد للصحفيين من أن يسلّوا أنفسهم. ما هي التفصيلات التي تريدها؟

- وقت الوفاة، بأدقّ ما يمكن.

- وهو ما لا يمكن أن يكون دقيقاً تماماً لأن الجثة لم تُفحَص إلاّ صباح اليوم التالي. يُقدَّر أن الوفاة قد وقعت قبل موعد الفحص بثلاث عشرة ساعة إلى عشر ساعات؛ أي بين السابعة والعاشرة من الليلة

السابقة... لقد طُعن القتيل في الوريد الوداجي في الرقبة، ولا بد أن الوفاة حدثت خلال لحظات.

- وسلاح الجريمة؟

- نوع من المدى الإيطالية، صغير تماماً وحاد كالموس. لم يرَه أحد من قبل ولم يعلم أحد مصدره، ولكننا سنعرف ذلك في النهاية... إنها مسألة وقت وصبر.

- أليس ممكناً أن تكون هذه المدية قد التُقطت عرَضاً خلال مشاجرة؟

- لا أظن، فقد قال الخادم أنه لا يوجد شيء كهذا في الشقة.

- إن ما يثير اهتمامي هو البرقية، تلك البرقية التي استدعت آرنولد كلايتون إلى إسكتلندا... هل كان ذلك الاستدعاء حقيقياً؟

- لا، لم تقع هناك أية مشكلات أو تعقيدات، وكانت معاملة نقل ملكية الأرض تسير بشكل طبيعي.

- إذن فمَن أرسل تلك البرقية؟ إنني أفترض أنه كانت هناك برقية بالفعل.

- نعم، لا بد من وجودها؛ ليس تصديقاً لكلام السيدة كلايتون بالضرورة، ولكن لأن السيد كلايتون أخبر الخادم أنه استُدعي برقياً إلى هناك، كما أنه أخبر القائد مكلارين أيضاً.

- متى رأى كلايتون القائد مكلارين؟

- تناولا معاً عشاء خفيفاً في ناديهما، نادي الخدمات المشتركة،

وكان ذلك في نحو السابعة والربع. ثم استقلّ كلايتون سيارة أجرة إلى شقة ريتش، ووصل هناك قبل الساعة الثامنة بقليل. وبعد ذلك...

وبسط ميلر يديه مشيراً إلى أن الأمور جرت بعد ذلك كما هو معروف. سأله: بوارو: هل لاحظ أحدٌ أيَّ شيء غريب في سلوك ريتش في تلك الليلة؟

آه، حسناً، إنك تعلم كيف يتصرف الناس. ما إن يحدث شيء حتى يظن الناس أنهم لاحظوا كثيراً من الأمور التي أراهنُ أنهم لم يروها أبداً. مثلاً قالت السيدة سبينس إن ريتش كان شارداً طوال السهرة وإنه لم يُجب عن الأسئلة التي وُجّهت إليه بدقّة، كما لو كان لديه "شيء في ذهنه". ولا شك أنه كان في ذهنه شيء لو كان في صندوقه جثة وهو حائر لا يدري كيف يتخلص منها!

- لماذا لم يتخلص منها؟

- هذا ما يحيّرني كثيراً. هل فقد أعصابه؟ ربما، ولكن تركها حتى اليوم التالي كان جنوناً. كانت لديه أفضل فرصة للتخلص من الجثة في تلك الليلة، فلم يكن للمبنى حارس ليلي؛ كان بإمكانه إحضار سيارته ووضع الجثة في صندوقها (وهو صندوق كبير) والخروج باتجاه الريف ليخفي الجثة في مكان ما هناك. كان ثمة احتمال أن يُرى وهو يُخرج الجثة إلى السيارة، ولكن الشقق حيث مسكنه تقع في شارع جانبي، وهناك ساحة يمكن تقريب السيارة من خلالها. في الساعة الثالثة صباحاً على سبيل المثال- كانت له فرصة جيدة لإخراج الجثة. فما الذي فعله؟ ذهب إلى فراشه لينام حتى ضحى اليوم التالي، وليصحو على أصوات الشرطة في شقته!

- لقد أوى إلى فراشه ونام بعمق كما كان لرجل بريء أن يفعل.

- انظر إلى الأمر هكذا إن شئت، ولكن هل تعتقد حقاً أنه بريء؟

- ينبغي أن أؤخر الإجابة على هذا السؤال حتى أرى الرجل بنفسي.

- وهل تعتقد أنك تميز البريء عندما تراه؟ إن الأمر ليس بهذه السهولة.

- أعلمُ أن الأمر ليس سهلاً، ولن أدّعي أنني أستطيع تمييز البريء لدى رؤيته. ولكن ما أريد معرفته هو: هل الرجل على هذا القدر من الغباء الذي يبدو عليه؟

-٤-

لم يكن في نية بوارو أن يرى تشارلز ريتش حتى يلتقي بالآخرين جميعاً، وقد بدأ بالقائد مكلارين.

كان مكلارين رجلاً طويلاً داكن اللون لا يحب الكلام، وكان وجهه لطيفاً رغم التجاعيد التي تملؤه. ثابر بوارو رغم خجل الرجل وصعوبة الحديث معه. قال مكلارين وهو يمسك بملاحظة مارغريتا والتردد يغلب عليه: حسناً، إذا كانت مارغريتا تريدني أن أخبرك بكل ما أستطيعه فسأفعل ذلك بالطبع، مع أنني لا أعلم بأي شيء أخبرك. لقد سمعتَ القصة كلها بالتأكيد، ولكني سأفعل ما تريده مارغريتا. لقد فعلت دوماً ما كانت تريده منذ أن كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها، إذ أن لها تأثيرها كما تعلم.

- أعرف ذلك. ولكنني أريد منك أولاً أن تجيبني بصراحة تامة عن هذا السؤال: هل تعتقد بأن الرائد ريتش مذنب؟

- نعم، أعتقد ذلك. لم أكن لأقول ذلك لمارغريتا إن اختارت أن تؤمن ببراءته، ولكنني -ببساطة- لا أستطيع رؤية الأمر بطريقة أخرى. فكّر بالأمر، لا بد أنه مذنب.

- هل كانت بينه وبين السيد كلايتون مشاعر عدائية؟

- أبداً، بل كانا أفضل الأصدقاء، وهذا ما يجعل الأمر كله مستغرَباً جداً.

- ربما كانت صداقة الرائد ريتش مع السيدة كلايتون...

قاطعه مكلارين: تباً لكل تلك الشائعات التي تشير الصحافة إليها بخبث، يا لهذا اللمز اللعين! لقد كانت السيدة كلايتون وريتش مجرد صديقين وحسب! ولمارغريتا العديد من الأصدقاء. أنا صديق لها ولسنوات طويلة، وليس في صداقتنا ما نودّ إخفاءه عن أعين الناس. والشيء نفسه ينطبق على تشارلز ومارغريتا.

- إذن فأنت لا تظن أنهما كانا على علاقة عاطفية؟

- بالتأكيد لم يكونا كذلك.

قالها بغضب وتشديد، وأضاف: لا تُصغِ إلى تلك المشعوذة السيدة سبينس، فهي لا تتحرج عن قول أي شيء.

- ولكن ربما شكّ السيد كلايتون في وجود شيء ما بين زوجته والرائد ريتش؟

- إنه لم يشكّ في أي شيء من هذا القبيل. خذها مني، فقد كنت سأعلم لو كان الأمر كذلك لأننا كنا (آرنولد وأنا) قريبَين جداً بعضنا من بعض.

- من أي نوع من الرجال كان آرنولد؟ أنت تعرفه أكثر من غيرك.

-كان رجلاً هادئاً، ولكنه ذكي ولامع جداً كما أعتقد. كان بالفعل ذا عقل مالي من الدرجة الأولى كما يقولون، وكان مسؤولاً كبيراً في وزارة المالية كما تعلم.

- هكذا سمعت.

- كان يقرأ كثيراً، ويجمع الطوابع، وكان مغرماً جداً بالموسيقى، ولكنه لم يكن يهتم بالخروج من البيت.

- هل كان زواجه سعيداً برأيك؟

لم يأتِ جواب القائد مكلارين سريعاً. بدا أنه يفكر لحل هذا اللغز، وأخيراً قال: تصعب الإجابة عن هذا السؤال تماماً. نعم، أعتقد أنهما كانا سعيدين. كان مغرماً بها بطريقته الهادئة، وأنا متأكد من أنها كانت تحبه. لم يكن انفصالهما وارداً إذا كان هذا ما تفكر فيه، ولكن ربما لم يكونا متشابهين كثيراً.

هز بوارو رأسه، فقد حصل على ما اعتقد أنه يمكنه الحصول عليه. قال: أخبرني الآن عن تلك السهرة الأخيرة. لقد تناول السيد كلايتون العشاء معك في النادي، فماذا قال؟

- قال إن عليه الذهاب إلى إسكتلندا، وبدا منزعجاً من ذلك. ولم يتعش، بل قال إنه لا وقت لديه فاكتفى بأن تناول شطائر وشراباً.

أما أنا فقد اكتفيت بالشراب، فقد كنت ذاهباً إلى عشاء كما تذكر.

- هل ذكر شيئاً عن برقية؟

- نعم.

- ولكنه لم يطلعك عليها فعلياً؟

- نعم.

- هل قال إنه سيمر على ريتش؟

- ليس بهذا الشكل المحدد. في الواقع لقد قال إنه يشك فيما إذا كان يملك الوقت للذهاب إليه، وقال: "يمكن لمارغريتا أن تعتذر عني، أو أنت"، ثم قال: "أرجو أن تتأكد من مرافقتها إلى المنزل بعد الحفلة"، ثم مضى. كان ذلك كله طبيعياً وبسيطاً.

- هل كانت لديه أية شكوك حول حقيقة البرقية؟

قال القائد مكلارين وكأنه قد جفل: ألم تكن حقيقية؟

- يبدو أنها لم تكن صحيحة.

- هذا غريب جداً!

سرح القائد مكلارين فيما يشبه الغيبوبة، ثم صحا فجأة ليقول: ولكن هذا غريب فعلاً. أعني: ما هو المقصود من ذلك؟ مَنذا يريد منه أن يذهب إلى إسكتلندا، ولماذا؟

- هذا سؤال يحتاج إلى إجابة بالتأكيد.

غادر هيركيول بوارو تاركاً مكلارين وهو يفكر في هذه القضية.

كانت عائلة سبينس تعيش في بيت صغير في تشيلسي. استقبلت ليندا سبينس بوارو بحفاوة بالغة قائلة: أخبرني كل شيء عن مارغريتا... أين هي؟

- هذا ما لا أستطيع أن أبوح به يا سيدتي.

- لقد اختبأت جيداً! إنها ذكية جداً في مثل هذه الأمور، ولكنها سوف تُستدعى لتقديم شهادتها في المحكمة كما أظن؟ لن تستطيع التملص من ذلك.

نظر إليها بوارو نظرة تفحص وتخمين، واعترف لنفسه بتردد: إنها جميلة حسب مقاييس الأسلوب الحديث، فهي تشبه طفلاً يتيماً مصاباً بسوء التغذية. لم تكن من النوع الذي يعجبه، بشعرها المنفوش حول رأسها بطريقة فوضوية مقصودة وبعينيها اللاذعتين اللتين تراقبانه. كانت ترتدي بنطالاً أسود وسترة صفراء ضخمة تتدلى إلى ركبتيها تقريباً.

بادرت بالتساؤل: ما هو دورك في كل هذه القصة؟ أن تنقذ العشيق من المشكلة بطريقة ما؟ هذا هو دورك؟ ما أبعده من أمل!

- تعتقدين أنه مذنب إذن؟

- طبعاً، ومَن غيره؟

قال بوارو لنفسه: "هذا هو السؤال"، ولكنه تفاداه بسؤال آخر: كيف بدا لك الرائد ريتش في تلك الأمسية؟ كعادته أم على غير عادته؟

ضيّقت ليندا سبينس عينيها وهي تنطق حكمها: لا، إنه لم يكن كعادته، كان مختلفاً.

- إلى أي مدى؟

- حسناً، إذا طعنتَ رجلاً ببرودة أعصاب...

- لكنك لم تكوني تدركين في ذلك الوقت أنه طعن رجلاً ببرودة أعصاب، أليس كذلك؟

- طبعاً لم أكن أعرف.

- إذن فكيف فسرتِ عندها كونَه «مختلفاً»؟ بأية طريقة؟

- حسناً، كان شارداً. آه، لا أدري، ولكنني عندما فكّرت بالأمر في وقت لاحق قررت أنه كان هناك شيء ما.

تنهد بوارو وسأل: من وصل أولاً؟

- نحن وصلنا أولاً، أنا وجيريمي، ثم جوك، وأخيراً مارغريتا.

- ومتى ذُكر رحيل السيد كلايتون إلى إسكتلندا لأول مرة؟

- عندما وصلت مارغريتا، إذ قالت لتشارلز: "إن آرنولد يعتذر جداً، فقد اضطر إلى الذهاب بسرعة إلى إدنبرة في قطار المساء". فقال تشارلز: "آه، هذا سيء". ثم قال جوك: "آسف، ظننتك تعلم ذلك".

- ألم يشر ريتش إلى رؤيته للسيد كلايتون في ذلك المساء؟ ألم يقل شيئاً عن مروره بشقته وهو في طريقه إلى المحطة؟

-أنا لم أسمعه يشير إلى ذلك.

-كانت غريبة تلك البرقية، أليس كذلك؟

- ما الغريب فيها؟

- كانت مزيّفة، لا يعلم أحدٌ في إدنبرة أي شيء عنها.

- هكذا إذن؟ لقد استغربت الأمر في حينه.

- هل كان عندك معلومات عن البرقية؟

- لنقل إن الأمر يجذب الانتباه.

- ماذا تعنين بالضبط؟

- يا عزيزي، لا تمثل دور البريء؛ لقد قام مخادع مجهول بإبعاد الزوج عن الطريق!

- هل تعنين أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون خطّطا لقضاء الوقت معاً؟

- لقد سمعتَ أنت بمثل هذه الأمور، أليس كذلك؟

قالت جملتها وهي تبدو فرحة بالأمر.

- وتعتقدين أن البرقية أرسلها أحدهما؟

- هذا ما لن يدهشني وقوعه.

- إذن أنت تعتقدين أن الرائد ريتش والسيدة كلايتون كانا على علاقة غرامية؟

- دعني أقل إن هذا ما كان ليدهشني لو كان صحيحاً، ولكنني لا أعرف عنه يقيناً.

- هل شك السيد كلايتون؟

- كان آرنولد شخصاً استثنائياً؛ كان محصور المشاعر إن كنت تدرك ما أعنيه. أظنه كان يعلم، ولكنه كان من النوع الذي لا يشي بأحاسيسه أبداً. وقد يعتقد الجميع أنه كان خشبة يابسة لا مشاعر فيها، ولكنني واثقة تماماً من أنه لم يكن كذلك في أعماقه. الغريب في الأمر هو أن دهشتي كانت أقل بكثير لو أن آرنولد هو الذي طعن تشارلز، لا العكس، فأنا أعتقد أن آرنولد كان غَيوراً إلى حد الجنون.

- هذا أمر مثير.

- مع أنه كان سيقتل مارغريتا على الأرجح؛ كما حصل في قصة «عُطَيل». إن لمارغريتا تأثيراً رهيباً في الرجال كما تعلم.

قال بوارو مقلّلاً من حقيقة سحر تلك المرأة: إنها امرأة حسنة الشكل.

- إنها أكثر من ذلك؛ إن لديها شيئاً يولع بها الرجال، تلتفت هي لتنظر إليهم فاتحةً عينيها بدهشة تثير جنونهم.

- المرأة القاتلة!

- نعم، ربما كان هذا هو الوصف الأفضل لها.

- هل عرفتها عن كثب؟

- إنها واحدة من أفضل صديقاتي يا عزيزي، ومع ذلك فأنا لا أثق بها لحظة.

- آه!

قالها بوارو ثم حوّل الموضوع بسؤاله عن القائد مكلارين، فقالت: جوك؟ الصديق المخلص القديم؟ إنه صديقهم المدلل الذي وُلد ليكون صديقاً للعائلة. كانت علاقته حميمة مع آرنولد الذي كان يرتاح له أكثر من أي شخص آخر، كما كان قطة مارغريتا الأليفة بالطبع، وهو مغرم بها منذ سنوات طويلة.

- وهل كان السيد كلايتون يغار منه أيضاً؟

- يغار من جوك؟ يا لهذه الفكرة! إن مارغريتا مغرمة بجوك على نحو فريد، ولكنها لم تظهر له أبداً شيئاً من ذلك. لا أعتقد حقاً أن بوسع المرء... لا أدري لماذا، ولكن الأمر يبدو مخجلاً، فهو لطيف جداً.

حوّل بوارو الموضوع إلى الخادم. ولكن ليندا بدت خالية من أية أفكار بشأن الخادم، حتى إنها لم تلاحظ وجوده لولا ملاحظة باهتة مفادها أنه يقدم الطعام بشكل جيد. ولكنها كانت سريعة جداً في فهم الموضوع.

- أعتقد أنك تفكر بأن الخادم كان يستطيع قتل آرنولد بنفس السهولة؟ أظنها فكرة مجنونة!

- إن ملاحظتك تحزنني يا سيدتي. ولكن يبدو لي أيضاً (مع أنك قد لا توافقينني) أن من الجنون أيضاً ليس قتل الرائد ريتش لآرنولد كلايتون ولكن قتله بالطريقة التي قتله بها.

- تقصد تلك المدية الصغيرة؟ نعم، فهي لا تتماشى مع شخصيته مطلقاً. ربما كانت الطرق غير الجارحة أكثر انسجاماً؛ ربما كان بإمكانه أن يخنقه مثلاً.

تنهد بوارو قائلاً: ها قد عدنا إلى مسرحية عطيل. نعم، عُطَيل، لقد أوحيت لي بفكرة صغيرة.

- صحيح؟ ما هي؟

قطع حديثَها صوتُ المفتاح والباب وهو يُفتح، فقالت: آه، ها هو جيريمي. هل تريد التحدث معه أيضاً؟

كان جيريمي رجلاً حسن المظهر في الثلاثينات من عمره، وقد بدا مستعداً للّقاء وحذراً إلى حد يلفت الانتباه. قالت السيدة سبينس إن عليها أن تراقب الطعام في المطبخ وذهبت تاركةً الرجلين معاً.

لم يُبدِ جيريمي سبينس شيئاً من الصراحة والاهتمام الذي أبدته زوجته، فقد كان واضحاً كرهه الشديد للتورط في هذه القضية أساساً، وكانت ملاحظاته حذرة ولا تحتوي أية معلومات. قال إنه وزوجته قد عرفا عائلة كلايتون منذ فترة، ولم يعرفا ريتش بشكل جيد. وصفه بأنه شخص محبب وأنه كان تماماً كعادته في تلك السهرة ولم يلحظ عليه أي تغيير، وأن كلايتون وريتش كانا دائماً متفقَين متحابَين فيما يبدو، وأن القصة كلها يصعب تفسيرها.

وكان واضحاً طوال المقابلة أن جيريمي سبينس يريد من بوارو أن يغادر، مع أنه كان مؤدباً، مؤدباً فحسب.

قال بوارو: أخشى أنك لا تحب هذه الأسئلة؟

- حسناً، لقد خضعنا لجلسات مع الشرطة بشأن هذا الموضوع، وأشعر أن ذلك كان كافياً. لقد قلنا كل ما نعرفه وما رأيناه، والآن أريد أن أنسى الموضوع.

- إن مشاعري القلبية معك؛ فمن المُزعج تماماً أن يقع المرء في مثل هذا الأمر وأن يُطلب منه ليس فقط ما يعرف وما يرى، بل ربما ما يظن!

- الأفضل أن لا أظن!

- لا يمكن للمرء أن يتجنب ذلك، هل تظن -مثلاً- أن السيدة كلايتون كانت ضالعة في الجريمة أيضاً؟ هل خططت لمقتل زوجها مع ريتش؟

- يا إلهي! لا.

بدا سبينس مصعوقاً، وأضاف قائلاً: لم تخطر لي فكرة طرح سؤال من هذا النوع.

- ألم تشر زوجتك إلى مثل هذا الاحتمال؟

- آه! ليندا؟ إنك تعرف طبائع النساء، فهن دائماً يضمرن العداوة بعضهن لبعض. ومارغريتا لم تنل إعجاب بنات جنسها أبداً؛ فهي ذات سحر يحظى بلعناتهن. ولكن نظرية تخطيط مارغريتا وريتش للجريمة معاً نظريةٌ خيالية بالتأكيد!

- لقد حدثت مثل هذه الأشياء، كما أن سلاح الجريمة -على سبيل المثال- من نوع تلك الأسلحة التي يمكن للنساء اقتناؤها أكثر من الرجال.

- هل تعني أن الشرطة قد عرفوا أن المدية لها؟ لا يمكن! أقصد...

- لا أدري.

قالها بوارو بصدق، ثم انصرف بسرعة.

وقد استنتج بوارو -من الرعب الذي ملأ وجه سبينس- أنه قد ترك للرجل شيئاً ليفكر فيه!

-٦-

- اعذرني إذا قلت لك إنني لا أرى طريقة تستطيع أن تساعدني بها يا سيد بوارو.

لم يجب بوارو، فقد كان يتأمل وجه الرجل الذي اتُّهم بقتل صديقه آرنولد كلايتون. كان رجلاً نحيلاً أسمر ذا جسم رياضي قوي ورأس صغير، ولم يكن وجهه ليفصح عن أي شيء، وقد استقبل زائره بأسلوب ينقصه الكثير من الود.

قال: أعرف أن السيدة كلايتون قد أرسلتك لرؤيتي وهي تحمل أفضل النوايا، ولكن أعتقد -بصراحة- أنها لم تكن عاقلة بهذا الشأن، غير عاقلة وغير مقدّرة لمصلحتها الخاصة ولمصلحتي أيضاً.

- ماذا تعني؟

ألقى ريتش نظرة غاضبة ملتفتاً إلى الحارس الحاضر الذي كان يقف جانباً كما تقتضي التعليمات، ثم خفض صوته قائلاً: إنهم مطالبون بالعثور على دافع لهذا الاتهام السخيف، وسوف يحاولون إثبات أي رابط بيني وبين السيدة كلايتون. وهذا باطل تماماً كما أخبرتك السيدة كلايتون ولا بد، فنحن مجرد صديقين لا أكثر. ولذلك فالأفضل أن لا تقوم بأية خطوة لصالحي.

تجاهل هيركيول بوارو هذه النقطة وآثر أن يلتقط كلمة واحدة:

لقد قلت إنه إتهام سخيف، مع أنه ليس سخيفاً كما تعلم.

- هو كذلك لأنني لم أقتل آرنولد كلايتون.

- سمّه اتهاماً باطلاً إذن، قل إنه غير صحيح، ولكنه ليس سخيفاً. بل إنه اتهام مقبول ظاهرياً، ينبغي عليك أن تدرك ذلك تماماً.

- كل ما أستطيع قوله لك هو أنني أرى هذا الاتهام خيالياً أحمق!

- إن قولك هذا لن يكون ذا فائدة تذكر. ينبغي علينا أن نفكر بشيء أكثر جدوى.

- لي محامون يمثلونني، وقد هيّؤوا هيئة دفاع بارزة للدفاع عني، ولذلك فلن أقبل استعمالك لكلمة «علينا».

ابتسم بوارو فجأة، ثم قال بأسلوبه الأجنبي: آه، هذا هو تحذيرك لي! حسناً، سأذهب. لقد أردت رؤيتك وقد رأيتك. وكنت قد اطلعت على سجلك المهني؛ لقد نجحتَ في الانخراط في كلية ساندهيرست العسكرية ونجحت في الالتحاق بكلية الأركان، وهكذا استمرت نجاحاتك. لقد أصدرتُ حكمي عليك اليوم: أنت لست رجلاً غبياً.

وما علاقة كل ذلك بالقضية؟

له كل العلاقة؛ إذ يستحيل على رجل بمؤهلاتك أن يرتكب .... بالطريقة التي تمت بها هذه الجريمة. حسناً، أنت بريء. أ... الآن من خادمك بيرجس.

بيرجس؟

نعم، فإن لم تكن أنت الذي قتل كلايتون فلا بد أنه بيرجس. لا مفر من هذه الفرضية كما يبدو. ولكن لماذا؟ لا بد من وجود سبب، وأنت الوحيد الذي يعرف بيرجس بشكل جيد يسمح له بالتخمين. لماذا يا رائد ريتش، لماذا يمكن لبيرجس أن يقتل كلايتون؟

- لا أستطيع تصور ذلك. لقد اتبعت -بالمناسبة- الطريقة نفسها في التحليل. صحيح أن بيرجس كانت لديه الفرصة، بل إنه الوحيد سواي الذي كانت له الفرصة للقتل، ولكن المشكلة هي أنني لا أصدق ذلك، فبيرجس ليس من النوع الذي يمكن تخيله يقتل أحداً.

- ما الذي يعتقده مستشاروك القانونيون؟

مطّ ريتش شفتيه مكفهرّاً وقال: إنهم يمضون وقتهم في سؤالي (وربما إقناعي) إن كان صحيحاً أنني عانيت في حياتي من حالات فقدان الوعي حيث لا أعود مدركاً لما أفعله!

- هل وصل بهم العجز إلى هذا الحد؟ حسناً، ربما نحاول أن نثبت أن بيرجس هو الذي كان عرضة لهذه الحالات. إنها مجرد فكرة. والآن سأسألك عن سلاح الجريمة، لقد عرضوه عليك وسألوك إن كان لك؟

- إنه ليس لي، ولم أره أبداً من قبل.

- أنا أعرف أنه لم يكن لك، ولكن هل أنت متأكد تماماً من أنك لم تره من قبل؟

- نعم.

بدا في موقفه تردد بسيط قبل أن يكمل: إنه نوع من ألعاب الزينة. أشياء كهذه ربما رآها المرء ملقاة في بيوت الناس.

- في غرفة استقبال امرأة مثلاً؟ ربما في غرفة استقبال السيدة كلايتون؟

صاح ريتش: بالتأكيد لا!

نظر الحارس عندما سمع صوت ريتش العالي. قال بوارو: حسناً، لا حاجة للصراخ. ولكن ربما رأيت في مكان ما في وقت ما شيئاً يشبه تلك المدية. صحيح؟

- لا أظن ذلك، ربما فقط في بعض محلات التحف النادرة.

- هذا محتمَل جداً.

ثم نهض بوارو وقال: عن إذنك.

-٧-

قال بوارو لنفسه: والآن إلى بيرجس، نعم؛ أخيراً إلى بيرجس.

كان قد عرف شيئاً عن شخصيات هذه القضية، منهم أنفسهم أو مما قاله بعضهم عن بعض. ولكن أحداً لم يعطه أية معلومة عن بيرجس، لا طرف خيط ولا أية إشارة من أي نوع إلى طبيعة هذا الرجل.

عندما رأى بيرجس أدرك السبب. كان الخادم بانتظاره في شقة الرائد ريتش، إذ كان القائد مكلارين قد أعلمه هاتفياً بزيارة بوارو.

- أنا هيركيول بوارو.

- نعم يا سيدي، كنت بانتظارك.

أمسك بيرجس بالباب مفتوحاً باحترام بينما دخل بوارو إلى فسحة المدخل الصغيرة المربعة، وعلى الجهة اليسرى للفسحة كان هناك باب مفتوح يؤدي إلى غرفة الجلوس، حيث دخل بوارو وتبعه بيرجس بعد أن أخذ منه معطفه وقبعته.

قال بوارو وهو ينظر حوله: آه، هنا حدث الأمر إذن؟

- نعم يا سيدي.

كان بيرجس رجلاً هادئاً شاحب الوجه نحيل الجسم تماماً، ذا كتفين ومرفقين غير متناسبين وصوت منخفض يحمل لهجة ريفية لم يميزها بوارو، وربما كانت لهجة الساحل الشرقي. بدا شخصاً عصبي المزاج، وفيما عدا ذلك لم تكن له خصائص محددة. كان من الصعب ربطه بأي فعل إيجابي من أي نوع، فهل يمكن أن يفترضه قاتلاً سلبياً؟

كانت له تلك العينان الزرقاوان الشاحبتان اللتان ما تنفكّان تتحركان من مكان إلى آخر، تلك الصفة التي غالباً ما يرى فيها الناس غير المتعمقين في الملاحظة دليلاً على عدم الأمانة... مع أن الكاذب يمكن أن ينظر في وجه المرء بعين واثقة قوية.

سأل بوارو: ما الذي يحدث للشقة؟

- ما أزال أعتني بها يا سيدي، فقد قام الرائد ريتش بترتيب مسالة أجري والاستمرار في العناية بالشقة حتى... حتى...

وتحركت العينان بانزعاج، فسأله بوارو: "نعم، حتى..."، ثم أضاف وكأنه يقرر حقيقة واقعة: لا بد أن الرائد ريتش سيُقدَّم

للمحاكمة، ويُحتمَل أن تُعرَض القضية خلال ثلاثة أشهر.

هز بيرجس رأسه بحيرة وقال: إنه أمر غير ممكن.

- هل تعني أن يكون الرائد ريتش قاتلاً؟

- كل ما جرى غير ممكن، ذلك الصندوق...

وذهب نظره عبر الغرفة، فقال بوارو: آه! هذا هو الصندوق الشهير إذن؟

كان الصندوق قطعة من أثاث ضخمة، من الخشب الأسود اللامع المرصَّع بالنحاس، وبه مشبك نحاسي ضخم عليه قفل أثري. مشى بوارو إليه قائلاً: قطعة أثاث فخمة.

كان الصندوق مسنَداً إلى الجدار قرب النافذة، محاذياً لخزانة حديثة لحفظ أشرطة التسجيل، وعلى جانبه الآخر كان هناك باب مفتوح قليلاً، وقد اختفى جزء من الباب خلف قاطع خشبي ضخم متحرك على شكل لوحة زُيّنت بالرسوم.

قال بيرجس: هذا يؤدي إلى غرفة نوم الرائد ريتش.

هز بوارو رأسه فيما سافرت نظراته إلى الجانب الآخر من الغرفة. كان هناك جهازا تسجيل وُضع كل منهما على طاولة منخفضة وقد تدلت منهما كالأفاعي نهايات أشرطة التسجيل. كما كان هناك كراسي مريحة وطاولة كبيرة، وعلى الجدران مجموعة من اللوحات اليابانية. كانت غرفة أنيقة مريحة ولكنها لم تكن مترفة.

نظر ثانية إلى وليام بيرجس، ثم قال بلطف: لا شك أن اكتشاف الجثة كان صدمة قاسية لك.

- نعم يا سيدي، إنني لن أنساها أبداً.

ثم اندفع الخادم بالكلام والكلمات تتدفق من فمه، وكأنه قد أحس أن إعادة سرد القصة مراراً سيمحوها من عقله: كنت أنظف الغرفة يا سيدي وآخذ الكؤوس وسائر مخلفات الحفلة. ثم توقفت لألتقط حبتَي زيتون عن الأرض فرأيت ذلك على السجادة، بقعة داكنة بلون الصدأ. لا، السجادة ليست هنا الآن، فقد أخذت إلى محل التنظيف... تولى الشرطة أمرها. فكرت ثم قلت لنفسي على سبيل الضحك: "إنها تبدو كآثار الدماء! ولكن من أين أتت؟ ما الذي انكسر؟"، ثم أدركت أنها جاءت من الصندوق، من جانبه هنا حيث يوجد شرخ. وقلت لنفسي ثانية وأنا ما أزال خالي الذهن: "حسناً، لكن ما يكون"، ثم رفعت الغطاء هكذا (وطابَقَ فعلَه كلماته) ورأيتها هناك، جثة رجل مضطجع على جانبه وقد تقوقع جسمه كما لو كان نائماً، وتلك السكين أو الخنجر الغريب الكريه مغروز في رقبته. إنني لن أنسى ذلك، أبداً؛ سأذكره طوال حياتي! كانت صدمة غير متوقعة، هل تفهمني؟

أخذ نفساً عميقاً ثم تابع: تركت غطاء الصندوق يقع وركضت خارج الشقة إلى الشارع لأبحث عن شرطي، ولحسن الحظ وجدت شرطياً عند المنعطف.

تأمله بوارو بإمعان. كان تمثيله رائعاً إن كان حقاً تمثيلاً، ثم بدأ يخشى أن لا تكون الرواية تمثيلاً بل عرضاً للأمور كما جرت بالفعل. سأله بوارو: ألم تفكر في إيقاظ الرائد ريتش أولاً؟

- لم يخطر ذلك ببالي يا سيدي، فبعد الصدمة لم... لم أرغب إلا بمغادرة المكان.

ثم ابتلع ريقه مكملاً: وَ... وطلب النجدة.

هز بوارو رأسه ثم سأله: هل أدركت أن الجثة كانت جثة السيد كلايتون؟

- ضروري أنني أدركت ذلك يا سيدي، ولكن لم أصدق نفسي. وعندما عدت برفقة ضابط الشرطة قلت: "يا إلهي، إنه السيد كلايتون!" فسألني: "مَن السيد كلايتون؟" فقلت له: "كان هنا ليلة أمس".

- آه، ليلة أمس... هل تتذكر متى وصل السيد كلايتون إلى هنا بالضبط؟

- ليس بالدقائق، ولكن قبل الثامنة بأقل من ربع ساعة كما أحسب.

- هل كنت تعرفه جيداً؟

- لقد أتى هو والسيدة كلايتون مراراً إلى هذا البيت خلال السنة التي عملت فيها هنا.

- هل كان يبدو طبيعياً كعادته؟

- أعتقد ذلك. كان يلهث قليلاً، ولكني عزوت ذلك إلى استعجاله، إذ كان يريد اللحاق بالقطار... أو هكذا قال.

- أظن أنه كان يحمل حقيبة باعتباره مسافراً؟

- لا يا سيدي؛ أظنه ترك سيارة أجرة تنتظره في الشارع.

- هل بدت عليه خيبة الأمل وهو يرى أن الرائد ريتش كان خارج البيت؟

- لم ألاحظ خيبة أمل. اكتفى بالقول إنه يريد كتابة ملاحظة، للداخل وتوجه إلى المكتب وعدت أنا إلى المطبخ. كنت متأخراً قليلاً في إعداد الكافيار، ولأن المطبخ يقع في نهاية الممر فإن المرء لا يسمع جيداً من هناك، فلم أسمعه يخرج كما لم أسمع سيدي يدخل، ولكني لم أكن لأتوقع...

- وما الذي حدث بعدها؟

- ناداني الرائد ريتش. كان يقف بالباب هنا وقال إنه نسي شراء سجائر السيد سبينس التركية المفضلة وطلب مني الإسراع بجلبها، وهذا ما فعلته. أحضرتها ووضعتها على الطاولة هنا، واعتقدت طبعاً أن السيد كلايتون كان قد غادر للحاق بقطاره.

- ولم يأتِ أحدٌ إلى الشقة في أثناء وجود الرائد ريتش خارج المنزل وانشغالك أنت في المطبخ؟

- نعم يا سيدي، لم يأتِ أحد.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- كيف لأي امرئ أن يتأكد يا سيدي؟ كان على القادم أن يقرع الجرس.

هز بوارو رأسه متسائلاً: "كيف لأي امرئ أن يتأكد؟"... كان يدرك أن باستطاعة الزوجين سبينس ومكلارين وأيضاً السيدة كلايتون أن يقدموا برهاناً على انشغالهم في ذلك الوقت بأمور أخرى، فقد كان مكلارين مع بعض معارفه في النادي، وكان الزوجان سبينس يستقبلان صديقين لهما قبل حضورهما إلى الحفلة، وقد كانت

مارغريتا كلايتون تتحدث هاتفياً مع إحدى صديقاتها في ذلك الوقت بالذات. لم يكن مبعث هذا التفكير شكه في أي منهم كمرشح محتمَل لتنفيذ الجريمة، فقد كانت هناك طرق أفضل لقتل آرنولد كلايتون، أفضل من ملاحقته إلى شقة يعمل فيها خادم ويحتمَل عودة صاحبها في أية دقيقة. لا، كان لبوارو أمل أخير في ظهور «غريب غامض»، شخص يخرج من ماضي كلايتون الذي يبدو نظيفاً، فيراه في الشارع ويتعرف إلى هويته فيتبعه إلى هنا ثم يهاجمه بتلك المدية ويرمي الجثة في الصندوق ويهرب... إنها ميلودراما خالصة لا علاقة لها بالعقل ولا بأية احتمالات، تتناغم مع الروايات الرومنسية التاريخية وتلائم هذا الصندوق الإسباني!

عاد إلى الصندوق ورفع غطاءه فارتفع بيسر ودون ضجة. قال بيرجس بصوت خافت: لقد تم تنظيفه يا سيدي، وقد تأكدتُ من ذلك.

انحنى بوارو فوق الصندوق، ثم انحنى أكثر إلى داخله وهو يطلق صوتاً متعجباً. وتفحص الصندوق بأصابعه وهو يقول: هذه الثقوب في الخلف وفي جانب الصندوق تبدو وكأنها قد حُفرت منذ وقت قريب.

- ثقوب يا سيدي؟

قال ذلك ثم انحنى ليرى، ثم قال: لا يمكنني حقاً أن أجزم؛ لم أنتبه إلى هذه الثقوب من قبل.

- إنها ليست واضحة تماماً، ولكنها موجودة. ما هو سبب وجودها برأيك؟

- لا أعرف يا سيدي، لا أعرف حقاً. ربما كانت من نخر حشرة

ما، أعني خنفساء أو ما شابهها من الحشرات التي تقضم الخشب؟

- حشرة؟ هل هذا ممكن؟

عاد بوارو إلى الجانب الآخر من الغرفة وسأل الخادم: عندما عدت إلى هنا بالسجائر هل كان في هذه الغرفة أي تغيير، أي تغيير مهما كان بسيطاً... تغيير في الكراسي أو الطاولة أو أي شيء؟

- غريب منك أن تسأل هذا السؤال يا سيدي. أما وقد ذكرت ذلك فقد كان هناك تغيير، فقد كان ذلك القاطع الخشبي الذي يحجز الهواء عن غرفة النوم قد تحرك قليلاً إلى الجهة اليسرى.

- هكذا؟

قالها بوارو وقد حرك القاطع.

- بل أكثر قليلاً، نعم، نعم هكذا.

كان القاطع قد أخفى أكثر من نصف الصندوق، بل إنه قد غطى بوضعه الجديد- كامل الصندوق تقريباً.

- لماذا تمّ تحريك القاطع برأيك؟

- لا رأي لي يا سيدي.

(ها هي آنسة ليمون أخرى!)

أضاف بيرجس متشككاً: أعتقد أن هذا من شأنه أن يُبقي الطريق مفتوحاً إلى غرفة النوم، إذا ما رغب النسوة في ترك معاطفهن هناك مثلاً.

- ربما، وربما كان هناك سبب آخر.

نظر بيرجس متسائلاً، فمضى بوارو قائلاً: إن القاطع يخفي الصندوق الآن ويخفي السجادة تحت الصندوق. ولو افترضنا أن الرائد ريتش قد طعن كلايتون لكان الدم سيبدأ بالانسياب من الشروخ الموجودة في أسفل الصندوق، وربما لاحظ أحدهم ذلك كما لاحظته أنت صباح اليوم التالي. وهكذا فقد تم سحب القاطع.

- لم أفكر بذلك مطلقاً يا سيدي.

- ما هو نوع الإضاءة هنا، قوية أم باهتة؟

- سأريك إياها يا سيدي.

سحب الخادم الستائر بسرعة وأشعل مصباحين كان ضوؤهما خافتاً لا يكاد يسمح حتى بالقراءة. نظر بوارو إلى مصباح معلق بالسقف فقال الخادم: لم يكن هذا المصباح مضاء يا سيدي، إنه لا يُستعمَل إلا نادراً.

نظر بوارو حوله، فقال الخادم: لا أعتقد أنك يمكن أن ترى بقعة الدم يا سيدي، فالضوء خافت جداً.

- أنت محق في ذلك، ولكن لماذا تم سحب القاطع إذن؟

ارتعش بيرجس ثم قال: إن التفكير في أن سيداً لطيفاً كالرائد ريتش يفعل شيئاً كهذا أمر مرعب فعلاً.

- أليست لديك شكوك في أنه فعلها؟ لماذا فعلها يا بيرجس؟

- حسناً، لقد خاض غمار الحرب طبعاً، وربما كان قد أصيب بجرح ما في رأسه. يقولون إن أمراً كهذا قد لا تظهر نتائجه إلا بعد سنوات أحياناً، حيث يبدو المصابون بمثل هذه الحالات فجأة أشخاصاً

غريبين لا يدركون حقيقة أفعالهم. ويقال إنهم غالباً ما يُلحقون الضرر بأقرب وأعز الناس إليهم. هل تظن أن الأمر كان كذلك؟

حدق بوارو إليه ثم تنهد والتفت قائلاً: لا، لم يكن الأمر كذلك.

وبخفّةِ ساحرٍ اندسّت ورقة نقدية في يد بيرجس، فقال: آه، شكراً يا سيدي، ولكنني حقاً لا...

قاطعه بوارو قائلاً: لقد ساعدتني كثيراً إذ أريتني هذه الغرفة ومحتوياتها، وإذ رويت لي ما حدث في تلك الليلة. إن المستحيل ليس مستحيلاً! تذكّر ذلك. لقد قلتُ إنه كان هناك احتمالان فقط، وقد كنتُ مخطئاً، فهناك احتمال ثالث.

ثم نظر حوله إلى الغرفة فارتعش جسمه قليلاً، ومضى يقول: افتح الستائر ودع الضوء والهواء يدخلان، فهذه الغرفة بحاجة إليهما. إنها بحاجة إلى تطهير، وسوف يمضي وقت طويل قبل أن تتطهّر مما أصابها... من ذكرى الكراهية المتبقية.

سلم بيرجس بوارو معطفه وقبعته وهو فاغرٌ فمَه حيرةً وارتباكاً، بينما نزل بوارو (الذي يحبّ إلقاء العبارات الغامضة) إلى الشارع بخطوات رشيقة.

-٨-

عندما وصل بوارو إلى بيته أجرى مكالمة هاتفية مع المفتش ميلر وسأله: ما الذي حدث لحقيبة كلايتون؟ لقد قالت زوجته إنه حزم حقيبة.

- كانت في النادي. تركها لدى البواب، ويبدو أنه نسيها وغادر دون أن يأخذها.

- ما الذي كان بداخلها؟

- الأمتعة المتوقعة: بيجاما وقمصان إضافية ولوازم الاغتسال.

- كل شيء.

- ما الذي توقعت أن يكون فيها؟

تجاهل بوارو هذا السؤال وقال: فيما يخص المدية، أقترحُ عليك الإمساك بأية امرأة كانت تنظف بيت عائلة سبينس والتأكد مما إذا كانت قد رأت مثل هذه المدية في المنزل.

- السيدة سبينس؟ هل يعمل عقلك بهذه الطريقة؟ لقد عرضنا المدية على الزوجين ولم يعرفاها.

- اسألهما ثانية.

- هل تعني أن...

- ثم أخبرني بما يقولان.

- لا أكاد أتخيل حقيقة ما تظن أنك قد كشفته!

- اقرأ مسرحية عُطَيل يا ميلر وفكر في شخصياتها، فقد أغفلنا واحداً منهم!

ثم أقفل بوارو الخط وطلب السيدة تشاترتون، فوجد الخط مشغولاً. حاول ثانية بعد قليل وكان الخط مشغولاً مرة أخرى، فاستدعى خادمه جورج وأمره أن يستمر بطلب الرقم حتى يحقق

الاتصال، فقد كان يعلم أن الليدي تشاترتون مولعة بالتحدث بالهاتف إلى حد لا يمكن الشفاء منه.

جلس على كرسي وخلع حذاءه ومدّد قدميه مسترخياً، ثم أخذ يحدّث نفسه: لقد كبرت وأصبحت أتعب بسرعة.

ثم تهلل وجهه ومضى قائلاً: ولكن الخلايا ما زالت تعمل. صحيح أنها بطيئة ولكنها تعمل. عُطَيل... نعم. مَن الذي لفت انتباهي إلى ذلك؟ آه، نعم، السيدة سبينس. الحقيبة، القاطع، الجثة المضطجعة هناك كرجل نائم... إنها جريمة قتل ذكية جرى تصورها مسبقاً والتخطيط لها... وربما الاستمتاع بها!

أخبره جورج أن الليدي تشاترتون على الخط.

- هيركيول بوارو يتكلم يا سيدتي. هل لي أن أتكلم مع ضيفتك؟

- نعم بالطبع. آه يا سيد بوارو، هل قمت بعمل رائع؟

- ليس بعد، ولكن ربما قريباً.

ثم سمع صوت مارغريتا الهادئ العذب، فقال: سيدتي، عندما سألتك إن كنت قد لاحظت أي شيء غير طبيعي أو في غير مكانه في الحفلة في تلك الأمسية قطبت جبينك كما لو كنت قد تذكرت شيئاً ثم فاتك ذكره، فهل كان ذلك الشيء هو موقع القاطع الخشبي في تلك الليلة؟

- القاطع؟ آه، نعم بالطبع؛ فهو لم يكن في مكانه المعتاد تماماً.

- هل لعبتم الورق في تلك الليلة؟

- نعم، لعبنا البريدج لبعض الوقت.

- مَن شارك في اللعب؟

- لعبت أنا مع جيريمي سبينس ضد ليندا وتشارلز، وكنا نتبادل أحياناً. أما جوك مكلارين فإنه لم يلعب، بل اكتفى بإخراج الأشرطة وترتيبها وتحضير الموسيقى التي نريد سماعها.

- هل استمعتم إلى موسيقى عالمية فيما بعد؟

- نعم.

سادت فترة من الصمت، ثم سألت مارغريتا: سيد بوارو، ما كل هذه الأسئلة؟ هل ثمة أمل؟

- هل علمتِ يوماً يا سيدتي حقيقة مشاعر الناس حولك؟

أجاب صوتها وفيه أثر للدهشة: إنني... أظن ذلك.

- أما أنا فلا أعتقد أنك علمت قط. أظنك خالية الذهن، وأعتقد أن هذه هي مأساة حياتك، ولكنها مأساة للآخرين وليست لك أنت. اليوم ذكر لي أحدهم شخصية عُطيل. وكنت قد سألتك إن كان زوجك غيوراً وقلت إنه لا بد غيور، ولكنك قلت ذلك كما لو كان أمراً هيّناً؛ قلتِه كما كان يمكن لديزدمونة أن تقوله وهي لا تدرك الخطر. لقد أدركَتْ -هي أيضاً- غيرة زوجها ولكنها لم تفهمها لأنها لم تحس بالغيرة، ولم تكن لتحسّ بها. أظن أنها كانت غافلة تماماً عن قوة العواطف الإنسانية الحادة، فقد أحبت زوجها بنوع من الحماسة الرومنسية التي ترافق ظاهرة عبادة البطل، كما أحبت صديقه كاسيو ببراءة تامة كصديق حميم، وأعتقد أنها كانت تقود الرجال إلى

الجنون بسبب مناعتها هي نفسها ضد العواطف... هل تفهمين شيئاً من كلامي يا سيدتي؟

ساد الصمت برهة، ثم أجاب صوت مارغريتا بارداً ومنبهراً قليلاً: أنا... في الحقيقة أنا لا أفهم ما تقوله.

تنهد بوارو وقال بنبرة واقعية: سأزورك هذا المساء.

-٩-

لم يكن المفتش ميلر بالرجل الذي يسهل إقناعه، ولكن هيركيول بوارو لم يكن أيضاً بالرجل الذي يمكن التخلص منه قبل أن يحقق أغراضه. وقد تذمّر المفتش ميلر ولكنه أذعن أخيراً. لكنه قال: ومع ذلك، ما علاقة الليدي تشاترتون بالأمر؟

- لا علاقة لها في الواقع، ولكنها منحت حق اللجوء لإحدى صديقاتها، هذا كل ما في الأمر.

- وفيما يخص عائلة سبينس هذه. كيف عرفتَ...؟

- أن المدية أتت منهم؟ كان ذلك مجرد تخمين. وقد خطرت لي الفكرة من عبارة قالها جيريمي سبينس، فقد أوحيت له بأن المدية تعود إلى مارغريتا كلايتون فأظهر أنه يعلم فعلاً أنها ليست لها.

توقف بوارو قليلاً ثم سأل بفضول: ما الذي قالاه لك؟

- لقد اعترفا بأن المدية تشبه كثيراً خنجر زينة كان عندهما، افتقداه قبل بضعة أسابيع ثم نسياه بالفعل. أظن أن ريتش سرقه من بيتهما.

تمتم بوارو قائلاً لنفسه: قبل بضعة أسابيع... آه، نعم؛ لقد بدأ التخطيط منذ فترة طويلة.

- ماذا، ماذا قلت؟

- لقد وصلنا.

قالها بوارو فيما وصلت سيارة الأجرة إلى بيت الليدي تشاترتون في شارع تشيريتون، ودفع بوارو الأجرة.

كانت مارغريتا كلايتون بانتظارهما في غرفتها في الطابق العلوي، وقد تجهم وجهها عندما رأت ميلر فقالت: لم أكن أعرف...

- لم تعرفي من هو الصديق الذي اقترحتُ إحضاره معي؟

- المفتش ميلر ليس من أصدقائي.

- هذا يعتمد على رغبتك (أو عدم رغبتك) في رؤية العدالة تتحقق يا سيدة كلايتون. لقد قُتل زوجك، وعلينا الآن أن نتحدث عن الشخص الذي قتله. هل يمكن أن نجلس يا سيدتي؟

جلست مارغريتا ببطء على كرسي ذي مسند عال في مواجهة الرجلين.

قال بوارو موجّهاً حديثَه إليهما معاً: أطلب منكما أن تصغيا إليّ بشيء من الصبر، فأنا أعتقد أنني أعلم الآن ما حصل في تلك السهرة المشؤومة في شقة الرائد ريتش. لقد بدأنا جميعاً بافتراض خاطئ، وهو أنه كان هناك شخصان فقط سنحت لهما فرصة وضع الجثة في الصندوق: الرائد ريتش وخادمه ويليام بيرجس. ولكننا كنا مخطئين؛ كان في الشقة في تلك الأمسية شخص ثالث سنحت له فرصة [illegible] بذلك.

قال ميلر مشككاً: من كان ذلك الشخص؟ صبي المصعد؟

لا؛ بل آرنولد كلايتون.

ماذا؟! يقوم بإخفاء جثته؟ لقد جُننت.

- طبعاً هو لم يكن جثة، بل كان حياً يرزق. ببساطة: لقد خبأ نفسه في الصندوق، وهو أمر حدث مِراراً عبر التاريخ؛ كما حصل للعروس الميتة في كتاب «غصن الهدال» مثلاً. لقد خطر هذا ببالي بمجرد رؤية ثقوب حُفِرت في الصندوق حديثاً. لماذا حُفرت؟ حُفرت حتى تسمح بدخول كمية كافية من الهواء إلى الصندوق. لماذا سُحب القاطع من مكانه المعتاد في تلك الليلة؟ سحب لكي يخفي الصندوق عن أعين الحاضرين في الغرفة، بحيث يمكن للرجل المختبئ أن يرفع غطاء الصندوق من وقت لآخر ليخفف من ضيقه ويستمع إلى الحديث الدائر بشكل أفضل.

تساءلت مارغريتا وقد اتسعت عيناها استغراباً: ولكن لماذا؟ لماذا يريد آرنولد الاختفاء في الصندوق؟

- أأنت التي تسألين يا سيدتي؟ لقد كان زوجك رجلاً غيوراً، وكان أيضاً لا يفصح عما في داخله؛ كان «محصور المشاعر» كما وصفَته صديقتك السيدة سبينس. وقد تفاقمت غيرته وباتت تعذّبه؛ فهو لم يكن متأكداً إن كنت عشيقة لريتش أم لا... وكان عليه أن يتأكد! وهكذا جاءت «برقية من إسكتلندا»... برقية لم يرسلها أحد ولم يرها أحد! ثم تم حزم الحقيبة والتخلص منها بنسيانها في النادي، ثم ذهب إلى الشقة عندما كان متأكداً من أن ريتش غير موجود فيها وأخبر الخادم أنه سيكتب ملاحظة، وحالما أصبح بمفرده حفر الثقوب في الصندوق وسحب القاطع ثم نزل في الصندوق، ففي تلك الليلة كان سيعلم بالحقيقة. ربما بقيت زوجته في الشقة بعد انصراف الآخرين،

وربما ذهبت معهم ثم عادت إلى الشقة... في تلك الليلة كان الرجل اليائس الذي أرهقته الغيرة عازماً على أن يعرف الحقيقة!

قال ميلر بصوت تملؤه الريبة: هذا هراء! هل تعني أنه طعن نفسه؟

- لا، بالطبع لم يفعل؛ فقد طعنه شخص آخر، شخص كان يعلم أنه هناك. لقد كانت جريمةَ قتلٍ بحقّ، جريمةً خُطّط لها بعناية وتم التفكير فيها لفترة طويلة. فلتفكرا في الشخصيات الأخرى في مسرحية عُطيل... وأقصد بذلك شخصية أياغو. التسميم الخبيث لعقل آرنولد كلايتون بالتلميحات والشكوك... أياغو المخلص، الصديق الوفي، الرجل الذي يصدّقه المرء دائماً! لقد صدّقه آرنولد كلايتون وتركه يتلاعب بغيرته ويؤججها إلى مستوى الحمى. هل كانت فكرةُ الاختباء في الصندوق فكرةَ آرنولد؟ ربما كان يعتقد أنها فكرته، وربما كانت كذلك فعلاً! وهكذا فقد تم إعداد المشهد، كما تم إعداد المدية التي سُرقت قبل ذلك بأسابيع. أقبل الليل، والأضواء خافتة والمسجّل يعمل، وأربعة ضيوف يلعبون الورق، والرجل العجوز يقف هناك كأنه مشغول بخزانة التسجيلات قرب الصندوق الإسباني والقاطع الذي يخفيه، ثم ينسلّ خلف القاطع فيرفع الغطاء ويضرب ضربته... حركة جريئة ولكنها سهلة تماماً!

- كان كلايتون سيصرخ!

- إلاّ إذا كان مخدَّراً. فحسب شهادة الخادم كانت الجثة مضطجعة كرجل نائم. كان كلايتون نائماً؛ فقد خدّره الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه تخديره، الرجل الذي تناول معه كأساً في النادي.

- جوك مكلارين؟!

ارتفع صوت مارغريتا عالياً باستغراب طفولي: جوك؟ لا، لا يمكن أن يكون العزيز جوك. لماذا؟ لقد عرفته طوال حياتي! لماذا يفعل ذلك بالله عليك؟

التفت بوارو إليها قائلاً: ولماذا تبارز الإيطاليان؟ ولماذا أطلق شاب النار على نفسه؟ إن جوك مكلارين رجل لا يفصح عن مشاعره. لقد ضغط على مشاعره وأقنع نفسه بأن يكتفي بأن يكون صديقاً مخلصاً لك ولزوجك، ثم ما لبث أن دخل الرائد ريتش في حياتك، وكان ذلك فوق طاقته! وهكذا فقد خطط في ظلمات الكراهية ما يكاد يكون جريمة كاملة... جريمة مزدوجة؛ لأنه كان من المؤكد اعتبار ريتش مذنباً في هذه القضية. لقد فكر بإبعاد ريتش وزوجك كليهما عن الطريق، إذ يمكن لك أخيراً أن تلتفتي إليه. وربما كنت ستفعلين ذلك يا سيدتي... أليس كذلك؟

راحت تحدق إليه وقد اتسعت عيناها وعقد الرعبُ لسانها، وتمتمت بلا وعي: ربما... لا أدري...

ثم تكلم المفتش ميلر بثقة مرجعية مفاجِئة قائلاً: هذا كلام جميل يا بوارو، ولكنه نظرية لا أكثر. ليس لديك أي دليل، وربما لم تكن في هذه النظرية كلمة واحدة صحيحة.

- بل إنها صحيحة كلها.

- ولكن لا يوجد أي دليل، ليس لدينا ما نعتمد عليه.

- أنت مخطئ؛ فأنا أعتقد أن مكلارين سوف يعترف بجريمته

لو وُضِعت أمامه هذه الحقائق، أي إذا أفهمناه بوضوح أن مارغريتا كلايتون تعرف.

سكت بوارو لحظة ثم أضاف: لأنه ما إن يدرك أنه قد خسر حتى تكون الجريمة الكاملة -بنظره- قد ذهبت عَبَثاً.

* * *

المضطهَد